نحو مسرح إسلامي معاصر (٧)

الهم الكبير

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

- الموارد التاريخية -

تم استقاء المادة التاريخية لمسرحية (الهم الكبير) من المصادر والمراجع التالية :

عز الدين بن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، القاهر-١٩٦٣م.

الكامل في التاريخ ، بيروت-١٩٦٦م.

شهاب الدين أبو شامة (المقدسي) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة-١٩٦٢م.

بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة -١٩٦٤م.

العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، تحقيق : رمضان ششن ، بيروت -١٩٧١م.

الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق : محمد صبح ، القاهرة-١٩٦٥م.

ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، بيروت-١٩٧١م.

جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة-١٩٣٥م.

ستيفن رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني، بيروت -١٩٦٧-١٩٦٨م.

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة-١٩٦٣م.

الناصر صلاح الدين ، القاهرة-١٩٦٥م.

السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة -١٩٦٣م.

عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، بيروت-١٩٧٢م.

نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دمشق-بيروت-١٩٨٠م.

Claude Cahen : La Syrie de Nord a Lepoque des Croisades (Paris-1940).

Rene Crousset : Histoire des Croisades et du Royaume France des Jerusalem (Paris-1934-1936).

S. Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle ages (London-1925). Saladin and the Fall of the Kingdom of Jeruslem (London-1898).

K. M. Setton : A History of the Crusades (Pennsylvania-1955-58).

(لوحة بشخوص المسرحية وفق تسلسل الظهور)

أبو الوليد : الراوي.

الأمير ريموند : أحد قادة الحملة الصليبية الأولى.

قطب الدين الحداد : مقدسيّ من أصدقاء الراوي.

نجم الدين أيوب : والد الناصر صلاح الدين.

أسد الدين شيركوه : عم صلاح الدين.

الناصر صلاح الدين : القائد .. والوزير .. والسلطان ..

نور الدين محمود : ابن عماد الدين زنكي ، الملك العادل حاكم الشام ومصر.

القطب النيسابوري : أحد كبار الفقهاء في مملكة نور الدين محمود.

مجد الدين بن الداية : نائب نور الدين محمود.

خالد بن القيسراني : مستوفي المملكة ووزير نور الدين محمود.

كمال الدين الشهرزوري : قاضي قضاة نور الدين محمود.

الرحبي : طبيب.

ابن الجمّال : رسول حلب إلى مصر.

بهاء الدين قراقوش : أستاذ القصر وكبير موظفي صلاح الدين في مصر.

سعد الدين كمشتكين : متولّي قلعة حلب.

شمس الدين بن الداية : شقيق مجد الدين وكبير أمراء نور الدين ونائبه بعد وفاة مجد الدين.

القاضي الفاضل : عبد الرحيم البيساني ، أحد كبار كتاب صلاح الدين ووزيره ، ومستشاره.

الملك الصالح : إسماعيل بن نور الدين محمود.

ابن العجمي : أحد أرباب الديوان المتنفذّين في حلب ..

الملك العادل : شقيق صلاح الدين ونائبه في مصر.

الملك الكامل : ابن العادل.

تقي الدين عمر : ابن أخي صلاح الدين وأحد قادته.

نور الدين بن قرا أرسلان : أحد أمراء ديار بكر.

العماد الأصفهاني : الكاتب والشاعر والمؤرخ ، وأحد كبار رجال الإدارة في دولة نور الدين ، ورئيس ديوان الإنشاء فيها ، وكاتب سر صلاح الدين ومن رجاله المقربين.

رينالد شاتيون : (أرناط) أمير صليبي ، صاحب حصن الكرك.

هنري بادوا : رئيس كتّاب أرناط.

المشطوب الهكاري : أحد قادة صلاح الدين.

جاي لوزجنان : ملك بيت المقدس الصليبي.

روبير صمويل : أحد أمراء جاي.

بيتر النورماني : أحد قادة جاي.

صارم الدين النجمي : أمير عسكر دمشق.

الملك الأفضل : ابن صلاح الدين.

مظفر الدين كوكبوري : أحد أمراء صلاح الدين في الجزيرة الفراتية.

جيرار دي ريد فورت : مقدّم الداوّية.

امرأة فرنجية وطفلتها

جوسياس : رئيس أساقفة صور.

فيليب أوغسطوس : ملك فرنسا.

ريمون الليوني : مستشار الملك الفرنسي.

محيي الدين بن زكي : القاضي ، وخطيب المسجد الأقصى.

ريتشارد (قلب الأسد) : ملك إنكلترا.

حسام الدين لاجين : ابن أخت صلاح الدين.

بدر الدين الياروقي : أمير عسكر حلب.

بهاء الدين بن شداد : القاضي ، سفير الموصل إلى صلاح الدين بعد فتح القدس ، اتخذه السلطان كاتباً ومستشاراً.

هنري دي شامبني : ابن أخت ريتشارد قلب الأسد ، والمرشح لعرش مملكة بيت المقدس.

وليم : طبيب الملك ريتشارد.

أونفروي دي تورون : ممثل الملك ريتشارد في مفاوضات الرملة.

الملك الظاهر : ابن صلاح الدين.

عمر الخلاطي : تاجر.

أمــراء ، مستشــارون ، قــادة ، فرســان ، حجّــاب ، موظفـون ، كتّـاب ، أطبـاء ، مترجمـون ، حرفيـون ، حرّاس ، خدم ، جنود ، حجّاج ، جماهير ...

- المشهد الأول -

القدس عام (٥٨٣ للهجرة) .. يرى في خلفية المشهد المسجد الأقصى وقبة الصخرة ..

الراوي : أملك ذاكرة عجيبة .. ما حدث قبل ثمانين أو تسعين عاماً يتشكل قبالتي تماماً بكل جزئياته وتفاصيله ، كما لو أنه يحدث اللحظة .. قد يكون هذا رائعاً مع الخبرات الجميلة والذكريات العذبة .. لكنه ازاء الوقائع الدموية والعنف البشري .. ازاء القتل الذي تدور طاحونته الحمراء لكي تحصد كل شيء ، وتنفي الحياة خارج الوجود ، فإنه يصير تعاسة وعذاباً .. وأتساءل: أين رحمة النسيان؟

كان أهل القدس يعرفون تماماً أنهم قادمون .. لم يفاجئوا .. وأخذوا أهبتهم للمقاومة .. كل حسب قدرته .. لكن فاصل الزمن كان ضيقاً .. ضيقاً بأكثر مما يجب .. وما بين مذبحة معرة النعمان التي أبيد فيها الناس جميعاً ، وبين وصولهم .. أسابيع .. والتكافؤ كان ضائعاً في كل شيء .. والمذبحة نازلة لا ريب فيها .. وكان محتوم علينا أن نفعل شيئاً .. أي شيء .. في مجابهة الطوفان .. وإلا ضعنا وضاعت القدس .. كان لابد أن نعذر أنفسنا أمام الله ..

الصرخة إياها تجرح إذني كالسكين .. إنهم قادمون .. هذه اللعنة المتدفقة كالجراد .. والأهل والأخوة والأبناء يتدافعون في الأزقة والحارات ميممين وجوههم صوب الأسوار العتيقة ، أو متجمهرين عند المسجد الأقصى .. يحملون سلاحهم وينظر بعضهم إلى بعض بدهشة تتخللها عروق الخوف والحزن .. كانوا مصممين على أن يفعلوا شيئاً ، فليس هيّناً عليهم أن تضيع القدس أمام أعينهم وهم ينظرون ..

– المشهد الثاني –

عـرض لاقتحـام الصـليبيين أسـوار القـدس بكـل زخمـه، والمقاومـة المسـتميتة ، غيـر المتكافئـة ، للمســلمين ، يعتمــد فــي إخراجهــا المســرحي (وكـذلك المشـهدان الثالـث والرابـع) تكتيـك العـرض السـينمائي علـى شاشـة خشـبة المسـرح .. وفـي الحـالتين المسـرحية والسـينمائية (أو التلفزيونيـة) يمكن للمخرج أن يوظف مقاطع جاهزة من أفلام الصراع الحربي ذي المجاميع (الكورالية) البشرية الكبيـرة ، والمقتبسـة عن الأعمـال الفنيـة للمرحلـة التاريخية نفسها.

الراوي : قاومنـا بضـعة أسـابيع بلياليهـا .. قتلنـا أسـراباً مـن الجـراد المنهمـر علـى سـماء القدس بغير حساب .. وكان عزاؤنا أننا أعذرنا إلى الله .. وكنا نتساءل : ماذا لـو أن محاولـة الفرنجـة اقتحـام القدس كانـت نزهـة لـم يلاقوا فيهـا أي عنـاء ؟ ومـاذا سـيقول التـاريخ ؟ وكيـف سـيكون الموقـف يـوم الخـزي بـين يـدي الله ورسوله؟ مئـات مـن أصـدقائي استشـهدوا وهم يقـاتلون علـى الأسـوار المتآكلـة وعند الأبواب التي أخذت تئن من تدافع المقاتلين .. مئات آخرون وهم يدفعون الغزاة أسفل قبـة الصـخرة ، أو عند المسـجد الأقصـى ، وفـي كنيسـة مريم فـي عـدوة الـوادي ، أو محـراب داود .. مئـات وهم يشـتبكون مـع البرابـرة بكـل مـا تصل إليه أيديهم عند كنيسة القيامة وفي المسالك الملتوية لجبل الزيتون .. وعند طرف الخندق حيث تنفجر عين سلوان التي كان المسيح (عليه السلام) قـد أبـرأ فيهـا الرجـل الأعمـى .. لـيس ثمـة مـن هـؤلاء مـن لا أعرفـه جيـداً .. ملامحه .. قسماته .. نظراته العميقة المتسمّرة في المجهول ، تبحث عن أفق للتحرر من الخوف .. لمنح الأمن والسكينة للحيارى والضائعين .. ابتسامته وهو ينتظر لحظة الفصل لكي يعطي ما عنده ويعذر إلى الله ..

مـا يحزننـي أننـي أعـرفهم واحـداً واحـداً .. تشـهد علـى ذلـك قناديـل المسـجد الأقصـى .. ومجـالس الـذكر فـي باحاتـه الوضـيئة .. وأزقـة القـدس النظيفـة المبلطة بالحجارة .. وبساتين البرتقال في سفوح جبل الزيتون ..

يوم الهول كـان مجـيء الفرنجـة .. ورغم كل حسـاباتنا .. رغم كـل محاولاتنـا للرصد .. فما كنا نتوقع أن يكونوا بهذا الحجم الكبير .. عشرات الآلاف من السيوف التي تتلمظ بشهية مخيفة لشرب دم المقدسيين ، وكأن عطش عشرات القـرون يتمركـز فـي لحظـة واحـدة ويتحفـز للارتـواء .. يـوم الهـول كـان .. والمرئيات تكاد تتداخل في مخيلتي اللحظة ، حيث تشتبك الخطوط وتتميع التفاصـيل .. اللحظـات الأولـى كانـت صـراخاً أشبه بالعويـل .. بعـواء الـذئاب الجائعة في الصحارى .. عشرات الآلاف من الحناجر .. دفعة واحدة .. لو أنهـا انصـبت علـى الجبـال لأفقدتها تماسكها وجعلتهـا ركامـاً .. دقيقـة بدقيقـة ولحظة بلحظة كان المقدسيون يتآكلون .. يتعرضون لنوع من الفناء المحموم الذي ما عرفته كل أزمان الطاعون .. وكنت أقاتل مع إخواني صبوراً متجلّداً .. لكني كنت أراهم يتآكلون .. قبالتي تماماً .. آه لو يعرف الإنسان معنـى أن يتآكل أصحابه أمام عينيه .. القتل والخوف والصراخ والدم والأشلاء والعطش والجوع .. وقصف كدوي الرعد بأصوات موغلة في الوحشية ، يتصادى عند بقايا الأسوار .. كانوا يعرفون جيداً أن امتلاك القدس يعني أنهم كسروا رقبة عالم الإسلام على امتداده وأن الطريق أصبح مكشوفاً أمامهم إلى المدى .. رموا بثقلهم كله في محاولة جاوزت كل حدود القسوة في قواميس العالم ، لكي يعتصـروا الثمـرة بعشـرات الآلاف مـن الأذرع الخشـنة القاسـية ، المتصـلّبة كالحديد ، فلا يدعوها إلاّ ركاماً ..

كـان ضـرب المنجنيقات يدك أسوار القدس بحجارتـه الكبيرة المتساقطة علـى الدور والأحياء بغير ما رحمة .. وتحت غطاء الضرب الذي ما كف لحظة واحدة ، اندفع ألوف المقاتلين ، بكل العنف البربري .. بكل الطاقة المختزنة في أعماق أوربا ، وغاباتها وسهوبها .. بكل النهم الذي يتجاوز حدود المملكة البشرية .. انـدفعوا لاكتسـاح الأسـوار المتهرئـة والأبـواب المتداعيـة ، والأبـراج القميئة التي ما حسب بناتها حساباً لزخم كهذا يعد بالثبور وينزل غضبه علـى الرجـال والشـيوخ والأطفـال والنسـاء .. علـى الإنسـان والحيـوان والحجـارة .. ماضيا إلى هدفه .. مدوّياً كالإعصار .. شاهراً سيفه لكي يمارس القطع الذي انتظره طويلاً ..

– المشهد الثالث –

الراوي : أحاول أن أنسى فلا أستطيع .. تكتسحني الذكريات الدموية مثل كابوس لا يرحم فأوغل في الزمن ، في محاولة للهروب من الحمىّ التي تلّح في تعذيبي .. تعيدني بين لحظة وأخرى إلى نقطة البداية المشؤومة تلك .. لكنني أبذل جهداً مضاعفاً للفكاك من الأسر والإيغال في الزمن .. فثمة دائماً الأمل بحدوث شيء ما .. ثمة وعد الله .. فلم يعرف التاريخ يوماً الحران على السكون .. ولن تتأبد حالة من حالاته مهما كانت ثقيلة الوطأة ، متجذرة في العنف والهمجية ، فلا تتبدل أو تزول .. تلك هي سنة الله في العالم .. **(وتلك الأيام نداولها بين الناس)** ..

المنظر : قلعة تكريت عام (٥٣٢هـ) .. قصر نائب الشحنة نجم الدين أيوب بن شادي.

نجم الدين : (لشقيقه أسد الدين شيركوه) لقد قتلته إذن ؟

أسد الدين : (وهو يكافح لالتقاط أنفاسه) لا أستطيع أن أقول غير هذا .. وعلى أية حال لقد نال القصاص الذي يستحقه ..

نجم الدين : (بعصبية) لمجرد تحرّشه بامرأة في عرض الطريق ؟ ألا ترى أنك تجاوزت في قصاصك حدّه المشروع ؟

أسد الدين : لم يكن الأمر بيدي .. بمجرد ان وجدتني قبالة الرجل وهو يحاول أن يتحرش بالمرأة ، فارت عروقي وصعد الدم إلى رأسي .. لم أعد أتمالك نفسي .. صرخت به أن يكف وأن يدعها تمضي في طريقها فلم يأبه بي !

نجم الدين : (محاولاً أن يكون هادئاً) فاستللت حربتك وطعنته بها ..

أسد الدين : فورة الغضب لا تقاوم أيها النائب ، فكيف ان كانت رداً على انتهاك الحرمات؟

نجم الدين : تلك هي مسؤوليتي يا أسد الدين ، وكان بمقدورك أن ترفع الأمر إلي .. وحينذاك كنت ستعرف كيف سيكون ردّي .. أتدري ؟ إنك بعملك هذا ستضعني في مأزق صعب مع (بهروز) شحنة بغداد .. لقد وثق الرجل بي واتخذني صديقاً له .. ولطالما حكى للسلطان عن خدماتي وإخلاصي في العمل .. ها أنت ذا تدمّر هذا كله بضربة طائشة ..

أسد الدين : لو كنت مكاني لكان يمكن أن تفعل الشيء نفسه .. إنه رد الفعل الطبيعي الذي لا يستطيع الإنسان أن يعصي له أمراً ..

نجم الدين : حتى لو فعلته ، فإنني أنا المسؤول عن مصائر الناس وتصرفاتهم هنا ولست أنت يا أسد الدين ..

أسد الدين : (وقد اسقط في يده) أرجو ألا تسمح يا نجم الدين لحادث عابر أن يعكر عليك صفو فرحك بالمولود الجديد.

نجم الدين : ولكنك عكرته فعلاً .. ولسوف ترى كيف أن الحادث لن يمر بسلام .. إن الشحنة سيجد نفسه محرجاً ازاء السلطان ، ولا أدري كيف سيخرج من المأزق الذي وضعه فيه الرجل الذي وثق به ..

أسد الدين : هوّن عليك يا أخي .. ولا تحاول تضخيم الأمور بأكثر مما يجب.

نجم الدين : ولكنك قتلت رجلاً يا هذا .. ماذا تسمي ذلك ؟

أسد الدين : قصاصاً عادلاً ..

نجم الدين : أبداً .. فليس عدلاً أن تقتل رجلاً لمجرد تحرشه بامرأة .. ثم ان هذا ليس من اختصاصك.

أسد الدين : (محاولاً أن يرسم ابتسامة على وجهه) هوّن عليك يا نجم الدين ، وإذا اراحك اعتذاري عن فعلتي تلك فها أنا ذا اعتذر وأطلب المغفرة ..

نجم الدين : والشحنة ؟

أسد الدين : لا تذهب في تحميل الأمور بأكثر مما تستحق .. حادثة عابرة وتمضي .. مئات من الناس ينالون جزاءهم كل يوم ..

نجم الدين : مهما حاولت أن تبرر فعلتك فلن تستطيع إقناعي .. ولسوف ترى صدق هواجسي يا أسد الدين ..

أسد الدين : دعك من هذا كله وتذكر مولودك الذي أسميته يوسف .. انه مدهش.

نجم الدين : (محاولاً أن يتجاوز توتره قليلاً) أحمد الله على أن وهبني إياه .. سألقبه صلاح الدين .. (يغمز أخاه) عسى الله أن يصلح به ما أفسده الآخرون !

الراوي : وكما توقع نجم الدين .. فإن بهروز شحنة بغداد سرعان ما تلقى نبأ مقتل الرجل بغضب جامح ، وكان عليه من أجل ألا يثير السلطان ضده أن يتخذ إجراء رادعاً ازاء أسد الدين وإلا عرّض منصبه ومكانته للخطر .. لكن علاقته الحميمة بنائبه نجم الدين كانت تقف بينه وبين تنفيذ هذا الإجراء .. وأخيراً وجد نفسه ازاء الخطوة التي ترضي السلطان ولا تلحق الأذى بأصدقائه من بني أيوب .. أرسل إلى نجم الدين يأمره أن يترك تكريت ويرحل وأهله إلى أي مكان يشاء .. فلم يلبث هذا أن اختار الموصل التي كانت له أياد بيضاء مع أميرها عماد الدين زنكي .. تلك هي مشيئة الله .. فمن يدري ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يلتحق بنو أيوب بالموصل ويستظلوا بشجرة آل زنكي المباركة على مدى ثلاثين عاماً .. أكان سيصير لهم ذكر في العالمين ؟

– المشهد الرابع –

دمشق عام (٥٥٩هـ) مجلس الملك العادل نور الدين محمود وإلى جواره الناصر صلاح الدين وقد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره .. فضلاً عن مجد الدين بن الداية نائب نور الدين وخالد بن القيسراني وقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري والقطب النيسابوري وآخرين من وجوه الدولة ..

صلاح الدين : لقد أبليت قبل يومين أيها الملك العادل بلاءً حسناً ..

نور الدين : (يضع يده على فم صلاح الدين وهو يبتسم) صه أيها الشاب فما جئت بك إلى هنا لاستمع إلى مديحك ..

صلاح الدين : كلمة حق تقال .. فما كانت مدينة حارم لترجع إلينا من قبضة الفرنجة لولا ..

نور الدين : (بصوت أكثر ارتفاعاً) إن ألححت على الذهاب بأجري فسأخرجك !

القطب النيسابوري : خير لك أن تصمت يا صلاح الدين ، فلقد تلقيت منه أنا الذي أكبرك خمسين عاماً .. ما هو أشد وأنكى ..

صلاح الدين : (ينظر إليه متسائلاً دون أن يقول شيئاً) ..

نور الدين ذلك أمر مضى يا قطب الدين .. وعلينا أن نفكر بما هو آت ..

النيسابوري : (وهو يمسد بهدوء على لحيته البيضاء الكثة) سأقولها يا نور الدين فأفعل ما تشاء ..

نور الدين : (يبتسم باستسلام) هذا الشيخ هو الوحيد الذي يستطيع أن يخترقني .. إنني لا أستطيع أن أرد له طلباً حتى لو كان على حسابي ..

ابن الداية : (بنظرة عتاب) وعليك يا مجد الدين أن تنوء وحدك برفض السلطان لأفكارك ومشاريعك .. هل أقول أنها الحظوظ ؟

نور الدين : ليس ثمة حظوظ يا مجد الدين ، وأنت تعرف ذلك جيداً ، لقد فعلت الكثير ، فلا بأس وأنت نائبي في البلاد أن اعترض عليك في القليل منه .. والمسألة مسألة وجهات نظر على أية حال .. وهي قد تخطيء وقد تصيب ..

صلاح الدين : (للنيسابوري بصوت منخفض) أخشى أن يضيع عليك الفرصة ، وهذا ما يتمناه السلطان ، بل ربما يتعمده .. فقل ..

النيسابوري : (بنفاد صبر) دعنا يا مجد الدين من تدقيقاتك الإدارية المحسوبة واستمع لما أقول ..

مجد الدين : (مبتسماً) لبيك أيها الشيخ ..

النيسابوري : (يعتدل في جلسته قليلاً وتكسو وجهه ملامح الجد) عندما التقينا بعسكر الفرنجة عند مشارف حارم كانوا يفوقوننا عدة وعدداً .. ورأيت نور الدين بنفسي وهو ينفرد تحت تل حارم ويسجد ممرغاً وجهه ، متضرّعاً ، ويقول : يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك .. إيش فضول محمود في الوسط ؟ اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً .. من هو محمود حتى ينصر ؟! ثم ما لبث أن امتطى فرسه وانقض على الفرنجة في قلب الميدان .. وبدا واضحاً لي أنه يعرض نفسه للشهادة .. يطلبها حثيثاً .. فاكتسحني القلق والخوف .. وما هي إلا أن انتهت المعركة بهزيمة أعداء الله حتى تقدمت إليه متوسلاً وقلت له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم وان أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف .. أتدرون ماذا كان رده ؟ قال وهو يضع يده على كتفي : يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ بلاد الإسلام .. ذلك هو الله الذي لا إله إلا هو !

نور الدين : الله يا قطب الدين هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وما الناس ابتداء من أصغر جندي فيهم حتى أكبر أمير إلا أدوات في يده ، وستار لقدره يحركها كما يشاء لتحقيق كلمته في الكون .. الله .. وكفى!

خالد بن القيسراني : أرجو ألا أنال غضبك أيها السلطان إذا قلت أنا الآخر ما عندي ..

نور الدين : (مبتسماً) ها قد كثرت علي الخروق فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

ابن القيسراني : تلقّى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها ألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد .. ومنها : المولى السلطان الملك العادل العالم

العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر ، نور الدين وعدته ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، فخر الملة ومجدها ، شمس المعالي وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلوم من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين ..

نور الدين : أعوذ بالله !

الشهرزوري : ونحن لا نسمع على منابر ديار الشام سوى عبارة : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي !

ابن القيسراني : أتدري يا كمال الدين .. لقد تلقيت رقعة بخطه يأمرني فيها أن أكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر ، فكتبت : أرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي .. فكان جوابه : هذا لا يدخله كذب ولا تزّيد، وكتب بخطه في أعلى الصفحة : مقصودي أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل ؟ والتفت إلي قائلاً: الذي كتبت به جيد .. أكتب به نسخاً إلى البلاد ..

صلاح الدين : (بدهشة) لقد بلغت مرتقىً صعباً أيها السلطان .. وأتعبت من بعدك .. وسعيد من قدر على اللحاق بك .. ولكن المسافات متطاولة وهي فوق ما نطيق ..

نور الدين : (ينظر إليه بمحبة) إنك لم تزل شاباً بعد يا صلاح الدين .. وأمامك الكثير .. والله سبحانه يمنح محبيه القدرة على مواصلة الطريق .. ومن يدري .. فقد تمضي يا صلاح الدين وتتركني وراءك .. بعيداً ..

صلاح الدين : (منكّس الرأس) أستغفر الله أيها السلطان فتلك ثقة لا استحقها !

– المشهد الخامس –

الراوي : تمكن نور الدين من أن يصنع أمة من المجاهدين .. تلك كانت مهمته على ما يبدو .. هذا الرجل الموحّد والمحرر عرف كيف يضع يديه على الأسباب .. إنها الجماهير المؤمنة التي يصير جهاد الغزاة خبزها اليومي .. طعامها وشرابها ونومها ويقظتها .. لقد أنشأ جيلاً من المقاتلين يحمل إنذاراً من الدرجة القصوى ، وهو متهيئ في أية لحظة للمضي قدماً لأداء المهمات الكبرى التي حملّه إياها الله والتاريخ.

إن الناس في بلاد الشام كانوا يعيشون يومذاك حالة حرب دائمة لأنهم كانوا في قلب الساحة ، ينامون على قرع الطبول ويصحون على صوت النفير .. كان على الرجل يومها أن يجاهد أو يقعد مع الأطفال والشيوخ والعجزة .. ولا أقول النساء، لأن النساء كن يقاتلن في الساحات التي أتيح لهن أن يقاتلن فيها .. أن يظل الإنسان في حالة وسط يقاتل إذا شاء ويستريح إذا أراد ، معناه أن يداس بحوافر الخيول المتصارعة القادمة من مشارق الأرض ومغاربها .. وحركة التاريخ التي كانت تقذف إلى سدة القيادة – أحياناً – رجالاً لا يقدرون على حمل مسؤولية الجهاد الدائم ، كانت تقذف بهم – بعد فترة قد تطول وقد تقصر – بعيداً عن مواقعهم لكي تفسح المكان للرجل الأقدر والأكثر التزاماً بمطالب اللحظة التاريخية ونبض الجماهير.

لا زلت أذكر ما حدث عام أربعة وأربعين وخمسمائة للهجرة .. فرض نور الدين الحصار على حصن أنب شمالي الشام ، فاجتمع له الفرنجة بقيادة أمير أنطاكية وساروا إليه ليبعدوه عن الحصن ، فلم يتراجع أمام حشدهم الكبير بل لقيهم واشتبك معهم في قتال مرير ظهر منه خلاله من الشجاعة والصبر في الحرب ، على حداثة سنه ، ما تعجّب الناس منه ، وانجلت المعركة عن هزيمة الفرنجة وقتل أمير انطاكية.

لا زلت أذكر أيضاً ما حدث عند حصن الأكراد عام ثمانية وخمسين وخمسمائة حيث هاجم الفرنجة معسكر نور الدين على حين غفلة ، وهو في قلة من أصحابه ، فأنسحب بسرعة إلى حمص وأخذ منها ما يحتاجه من خيام وتجهيزات وعاد فعسكر على بحيرة قدس على بعد أربعة فراسخ من مكان الهجوم ، وهناك اجتمع إليه كل ناج من المعركة، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم ها هنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وقال : إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلّوا أم كثروا. والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. وأرسل إلى حلب ودمشق يطلب مزيداً من الأموال والعدد. وكان في نية الفرنجة الهجوم على حمص ، باعتبارها أقرب المواقع إليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين قريباً منها قالوا : إنه لم يفعل هذا إلاّ وعنده من القوة ما يمنعنا ، وآثروا الانسحاب !

كان في الحرب ثابت القدم ، حسن الرمي ، يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير ..

أصيب أخوه (نصرة الدين) في حصار بانياس عام ستين وخمسمائة بسهم أذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك من الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى !!

– المشهد السادس –

قلعة دمشق عام (٥٥٩هـ) صلاح الدين يقف بحياء قبالة نور الدين.

نور الدين : ستذهب إلى مصر إذن بصحبة عمك أسد الدين ولن يخيب ظني فيك..

صلاح الدين : سأبذل قصارى جهدي إن شاء الله من أجل أن أكون عند حسن ظنك أيها السلطان ..

نور الدين : لقد اخترتك على علم وأنا أدرى برجالي ..

صلاح الدين : سيكون الفعل – بمعونة الله – لعمي أسد الدين ولن أكون سوى واحد من جنده ..

نور الدين : (وهو يمسّد على لحيته) مع ذلك !

صلاح الدين : إنها لشرف كبير لي هذه الثقة التي تمنحي إياها أيها السلطان ..

نور الدين : ليست منّة أمن بها عليك يا صلاح الدين ولكنه أمر تستاهله .. هذا هو قدرك .. وما نحن جميعاً إلا ستار لقدر الله ..

صلاح الدين : الحمد لله !

– المشهد السابع –

قلعة دمشق في العام نفسه .. نور الدين ونائبه مجد الدين بن الداية.

نور الدين : ماذا لديك يا مجد الدين ؟

مجد الدين : نبأ مفرحاً أيها السلطان .. وهو إذا أردت الحق ..

نور الدين : (مقاطعاً) أدخل إلى الموضوع بدون مقدمات .. لقد أتعبني أسلوبك أيها الرجل وأنت تصوغ أوامرك الإدارية ، فلا أريد أن تعيد الشيء نفسه وأنت تتحدث إلي ..

مجد الدين : (مبتسماً) سمعاً وطاعة .. لقد أنجز أسد الدين مهمته بنجاح وتمكن من أرض مصر .. وقطع الطريق على الفرنجة ..

نور الدين : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

مجد الدين : وأسمح لي إذا أعدت عليك القول بأنك تعرف فعلاً كيف تنتقي الرجال ..

نور الدين : الحمد لله وحده ..

مجد الدين : اعترض الكثيرون في الشام على ذهاب صلاح الدين بمعيّة عمه .. قالوا إنه لا يزال شاباً بعد لم يبلغ الثلاثين من العمر ، وأنه أعطي دوراً أكبر بكثير من قدراته ..

نور الدين : كنت أعرف هذا تماماً .. ولعل معهم الحق .. ولكن صلاح الدين نمط آخر من الرجال ..

مجد الدين : بكل تأكيد .. فإن ما فعله هناك كاد يغطي على دور عمه ..

– المشهد الثامن –

تبدو في خلفية المشهد خارطة مصر وجوانب من أزقة القاهرة وأحيائها .. وبين لحظة وأخرى ينفجر اشتباك مسلح في أماكن شتى من مصر ، يعتمد في إخراجها أسلوب العرض السينمائي ذي المجاميع الكبيرة.

الراوي : كان نور الدين محمود يعرف حقاً كيف يختار للمهمات الصعبة رجالها .. لم يكن العمر ، على أية حال ، هو الحكم الفصل .. فهناك الخبرة والكفاءة والفدائية والذكاء .. هناك قبل هذا وذاك ، الإيمان العميق بالله .. الإيمان الذي يكسر كل المعادلات المألوفة ويختزل حيثيات المكان والزمان ويصنع المستحيل ..

في الشهور الأولى من عام اثنتين وستين وخمسمائة للهجرة ، ساءت الأحوال في مصر .. اصطرع أصحاب المنافع العاجلة والأهواء على منصب الوزارة الذي يتحكم في البلاد والعباد .. وأصبح الخليفة الفاطمي ألعوبة بأيديهم .. بل ان بعضهم ما كان يجد بأساً في التعاون مع الفرنجة لمساعدته على تحقيق مآربه .. الأمر الذي دفع الخليفة

العاضد إلى الاستنجاد بنور الدين لوقف تدهور الأوضاع وتقديم مصر لقمة سائغة للعدو المتربّص على الحدود ..

وهكذا أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه يرافقه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر على رأس ألفي فارس لينقذ الموقف ، فالتقى مع قوات الفرنجة والفاطميين التي كانت قد اتفقت فيما بينها ، عند منطقة البابين، وكانت النتيجة انتصار شيركوه بعد أن أبلى صلاح الدين في المعركة بلاء حسناً حيث كان يقود قلب الجيش ، وقد نجا ملك الفرنجة أموري من بين يديه بأعجوبة ، ولكن ما هو أعجب تمكّن ألفي فارس من هزيمة عساكر مصر والفرنجة معاً .. ولما سمع أهالي الإسكندرية بهذا الانتصار غمرهم الفرح واجبروا والي المدينة على تسليم الإسكندرية سلماً بيد شيركوه الذي أعطى ولايتها لصلاح الدين ، وقد تمكن هذا بفضل تعاون جماهير المدينة معه من التصدي بحزم للهجوم الفرنجي الفاطمي المعاكس الذي استهدف ، بعد تجميع قواه ، إعادة السيطرة على المدينة والقضاء على صلاح الدين ، غير أنهم لم يفلحوا رغم شدة الحصار الذي دام أكثر من شهرين ..

وبعد فشل الحصار جنح لطلب الصلح كل من الفرنجة وحليفهم الوزير شاور ، فوافق عليه صلاح الدين بسبب من قلة أرزاقه ، والإعياء الذي أصاب أهل الإسكندرية نتيجة الحصار المفروض عليهم. وقضى الاتفاق بانسحاب الفرنجة من مصر ورجوع صلاح الدين بقواته إلى الشام. غير أن الفرنجة لم ينسحبوا إلا بعد أن اتفقوا سراً مع شاور بأن يكون لهم في القاهرة شحنة ينوب عنهم وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم وارد مصر كل سنة مائة ألف دينار. ويبدو أن الخليفة وقع تحت تأثير الوزير شاور فوافق على الاتفاق ، ولم يكفّر عن عمله إلا بما قام به سنة أربع وستين وخمسمائة للهجرة حيث استنجد بنور الدين مرة أخرى ليخلصه من تسلط الفرنجة وظلم شاور.

كان الفرنجة قد تمكنوا ، بفضل خيانة الوزير الفاطمي شاور ، من الديار المصرية وتحكموا في أموالها وأهليها وأرسلوا إلى ملكهم في فلسطين يستدعونه ليملكها .. وقاموا خلال ذلك بأعمال تخريبية في عدد من المدن ، وشهدت بلبيس مذبحة أتت على سكانها من المسلمين ، ونهبت أموالها .. وما لبثت الامداد أن جاءت من بلاد

الشام بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتمكنت من السيطرة على الموقف ، خاصة بعد قتل الوزير الخائن شاور وموافقة الخليفة الفاطمي على أن يكون وزيره الجديد أسد الدين شيركوه نفسه ، اعترافاً منه بالفضل الذي قدمه في دفع الخطر عن مصر ..

غير أن شيركوه لم يمكث في الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام ثم ما لبث أن توفي لكي يحل محله صلاح الدين الذي كان يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره ..

انصرف صلاح الدين في السنوات التالية إلى إصلاح الأوضاع المتدهورة في مصر في ميادين المال والاقتصاد والإدارة والجيش والتعليم .. وبناء على أوامر جاءته من نور الدين قطع ، في مطلع سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة ، الخطبة للعاضد الفاطمي الذي فقد قدرته على العمل ، وأقامها للخليفة العباسي .. عندها أصبح صلاح الدين الرجل الأول في مصر نائباً عن السلطان نور الدين محمود ..

– المشهد التاسع –

الراوي : في صبيحة يوم الاثنين ثاني أيام عيد الفطر المبارك من عام تسعة وستين وخمسمائة للهجرة خرج نور الدين محمود إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق ، لممارسة الألعاب والتمارين الفروسية والاحتفال بختان ولده الصالح إسماعيل .. فما عاد إلى بيته إلاّ وقد تمكن منه مرض الخوانيق ، وراح يضيق الخناق عليه ، وهو معتزل في بيته الخشبي المتواضع شمالي القلعة.

حكى لي صديقي الدمشقي : الرحبي ، وهو من حذّاق الأطباء قال :

الرحبي : استدعاني نور الدين في مرضه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فلما دخلنا عليه ورأيت ما به قلت له : كان ينبغي ألا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع إلى مكان فسيح .. لم يجبني .. وشرعنا في علاجه فلم ينجح فيه الدواء ، وعظم الداء ، وما لبث أن توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال ..

الراوي : وأين دفن ؟

الرحبي : في بيته ذاك الذي كان يلازم الجلوس والتعبّد والمبيت فيه ، ثم نقل إلى مقبرة تجاور مدرسته التي بناها للحنفية عند باب سوق الخوّاصين في الشارع الغربي .. رحمه الله ..

الراوي : والناس الذين أحبّهم وأحبّوه ؟

الرحبي : وقفوا يضطربون ويضطرمون .. ما رأيت في حياتي أمة من الناس تبكي أحداً كما بكى الدمشقيون سلطانهم الراحل .. تدفقوا على منزله من كل مكان لكي يشاركوا في تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير .. من الجامع الأموي الكبير الذي صلي عليه فيه إلى بيته المتواضع ذاك .. تدفقوا من كل مكان رجالاً وشيوخاً وشباباً ونساءً وأطفالاً خرجوا يبكون حتى أحمرّت أحداقهم .. وغصّت بهم شوارع دمشق ودروبها .. وتساءلت مع نفسي وأنا أحاول أن أدفن حزني في طبقة عميقة من نفسي كي لا يتملكني الجزع .. أتراه كان يعرف مقدار محبة الناس له؟

الراوي : بكل تأكيد .. فإن قلب المؤمن دليله .. أيها الصديق الطبيب .. لقد أحبّهم بملء قلبه فأحبوه بملء قلوبهم .. وها هم الآن يبكون عليه ويضطرمون ..

الرحبي : الموت قاسٍ يا أبا الوليد .. إنه لا ينتظر أبداً لكي يمنح المحبين الفرصة لتبادل الأشواق .. إنه يختطف من يقع عليهم اختياره اختطافاً.. إنه لأمر مؤلم .. ولم تكن الأيام التسعة بين بدء مرضه وبين وفاته كافية لاستعداد الطرفين ليوم الروع هذا.

الراوي : ولكنه هو على الأقل كان قد استعد تماماً لهذا اليوم ..

الرحبي : (بتأثر) أعرف ذلك جيداً .. فأنا طبيبه يا أبا الوليد .. وقد أتيح لي أن أطلع على خفايا حياته .. أكثر بكثير مما يعرفه أمراؤه وموظفوه أنفسهم .. بل ان بعض مقّربيه كانوا يحكون لي – بحكم علاقتي به – الكثير مما لم يطلع عليه الآخرون ..

الراوي : مثلاً ؟!

الرحبي : تعبّده يا أبا الوليد .. تعبّده .. لقد بلغ في مسالكه مرتقى صعباً .. كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها ، وكان فرنجة القدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سر ! فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما بالدعاء وصلاة الليل .. ولم يرد الله يده خائبة ، فيظفر علينا .. وحدّثني في إحدى المرات رضيع الخاتون زوجة نور الدين فقال : كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى الفجر ثم ينهض للركوب والاشتغال بمهام الدولة ..

الراوي : يرحمك الله يا نور الدين .. لقد ظل حسّك وذهنك ووجدانك مطبوعاً بالرؤية الصائبة للحياة والأشياء .. لموقع الإنسان في هذا العالم ، فلم تعتّمها إغراءات السلطة ولم تحطها بالظلمة والغياب نزغات القوة والجاه والسلطان ..

الرحبي : لقد عرف كيف يتعامل مع الدنيا فأتته راغمة ، وكسب مجد الدنيا والآخرة .. ولن أنسى يا أبا الوليد ما حكاه لي الأمير بهاء الدين علي بن الشكري وكان قد صحب نور الدين منذ أيام الصبا وأنس به .. قال: كنت معه يوماً في الميدان نسير والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدّمنا ظلّنا ، فلما عدنا صار ظلّنا وراء ظهورنا. فأجرى فرسه وهو يلتفت وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي والتفت ورائي ؟ قلت : لا. قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها !!

الراوي : (بتأثر) صدق والله يا رحبي .. لقد أعياها طلباً .. ولم يسمح لها لحظة بأن تنزل به من فوق ..

الرحبي : (مستمراً وهو يمسح عينيه بظاهر كفه محاولاً تجفيف دموعه) في أول أيام عيد الفطر المبارك .. اليوم الذي سبق مرضه ، حينما خرج إلى الميدان الأخضر لبدء الاحتفالات هناك ، تقدم منه أحد كبار أمرائه .. همام بن مودود ، وسأله : ترى .. هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ أجاب نور الدين : هل نكون بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة..

الراوي : (وهو يمسح عينيه بظاهر كفه) يرحمه الله !

- المشهد العاشر -

القاهرة (٥٦٩هـ) قصر الناصر صلاح الدين.

صلاح الدين : (وهو يمسد على لحيته منكّس الرأس) لقد توفي إذن ؟

ابن الجمّال : هذا ما جئت لكي أبلغك إياه أيها الملك ..

صلاح الدين : يرحمك الله يا نور الدين .. لقد بلغت مرتقى صعباً ودونه قطع الأنفاس..

ابن الجمّال : لا اعتقد أيها الملك ان بمقدور ابنه الصالح ملء الفراغ الذي تركه ، فهو صبي بعد لا يملك الدربة الكافية.

صلاح الدين : الدربة يمكن أن تأتي ، والعمر يمضي إلى غايته فينضج الرجال ، كما أن الصالح يملك من التقوى ما يشهد به الرائح والغادي .. ولكني أخشى عليه شيئاً آخر ..

ابن الجمّال : أعرف أيها الملك .. إنهم ..

صلاح الدين : (مسترسلاً) قد يحلمون بتجاوزه .. بالقفز فوقه .. وهم على أية حال يملكون الكثير مما يمكنهم من تحقيق أحلامهم ..

ابن الجمّال : منذ لحظات وفاة نور الدين أطلّت الفتنة برأسها .. لا أتهم أحداً منهم بالذات .. ولكنه إغراء السلطان .. هناك أيضاً ابن عمه في الموصل : عز الدين مسعود .. وقد دخل في روعه أنه الوصي الشرعي على مقدّرات الصالح .. إنهم قد يحاولون أن يمارسوا اللعبة من خلاله ..

صلاح الدين : هذا بحد ذاته قد لا ينبئ بالشر .. ولكن وجود العدو في ديارهم يتحفز لانتهاز اللحظة المناسبة .. ثغرة ضيقة في الجدار قد يتسلل منها ..

ابن الجمّال : ليس هذا فحسب ، ولكنهم الأمراء المسلمون أنفسهم .. الأمراء الذين عرف السلطان العادل رحمه الله كيف يشكمهم .. ها هم الآن في جل الإمارات المحيطة بحلب يحضرون لاقتسام الغنيمة ، معتقدين أن بمقدور أي منهم أن يضع الصالح في عباءته ..

صلاح الدين : قد يعطي هذا الفرصة للصالح ورجاله المخلصين لتجاوزهم جميعاً إذا عرفوا كيف يكونون سياسيين جيّدين .. ومن يدري فلعلهم تعلموا من نور الدين الكثير .. إنني قلق يا ابن الجمّال فإن التنافس على السلطة بين رجالات حلب أنفسهم قد يضعهم في دائرة الحمى ويدفعهم بالتالي إلى تجاوز كل الاعتبارات المطلوبة في لحظة كهذه .. إنها تضغط على الإنسان أحياناً فيما يخرج عن حدود قدراته ، فيخضع لها ، فتسوقه حيث تشاء ..

ابن الجمّال : البركة فيك أيها الملك .. إن جماهير الناس في حلب ، رغم حبها الشديد لملكها الصالح ، تتطلع إليك ..

صلاح الدين : لديّ في مصر من المشاكل ما يكفيني .. وها أنت ذا ترى .. الفرنجة لا يكفون عن التحفز للانقضاض عليها ..

ابن الجمّال : ولكنها الفتنة التي قد تأتي على إنجازات نور الدين رحمه الله ، فيضيع كل شيء.

صلاح الدين : من هذه الناحية أطمئن ، فإن البنيان الذي شاده العادل عرف كيف يجذّره في الأرض .. وقبل هذا ، قدر رحمه الله على صياغة الجماهير الحريصة على حمايته .. والتاريخ لا يرجع إلى الوراء ..

(ينادي على بهاء الدين قراقوش .. يدخل)

أظنك عرفت بالذي يجري هناك

بهاء الدين : نعم أيها الملك ، وثمة ما يمكن فعله في حالة كهذه.

صلاح الدين : (وهو يشير عليه بالجلوس) لست معك في هذا ، ولن أكون أول من

ينكر فضل سيده .. ولكن للصالح علينا حق النصح والرعاية وتسديد الخطى .. ولن أسمح لأحد في البلاد أن يتجاوز حقه المشروع.

بهاء الدين : ولكن ..

صلاح الدين : (ينظر إلى ابن الجمّال) أعرف كل ما ستقوله .. لقد أطلعني رسول ابن الداية على التفاصيل .. والمعرفة لا تعوزنا يا بهاء الدين ، ولكنه الفعل .. أو بعبارة أكثر وضوحاً .. خطة العمل أو السياسة التي تحمي الصالح قبالة الفتن والأعاصير .. تجعله يقف على قدميه إزاء التحديات والأحداث .. تمسك بيده إلى أن يصبح قديراً على اتخاذ القرار ..

بهاء الدين : سأبعث في طلب القاضي الفاضل وسأتدارس الأمر معه ثم أجيئك بالتفاصيل.

(يستأذن ويغادر المكان)

صلاح الدين : (لابن الجمّال) ارجع إلى حلب وانقل تحياتي لابن الداية والعماد الأصفهاني .. وقل للملك الصالح ان الناصر على عهده في الولاء لسيده ، وهو على استعداد في أية لحظة لتنفيذ ما تراه من أجل محاصرة المطامع والأهواء قبل أن يشب حريقها فيأتي على الأخضر واليابس ..

ابن الجمّال : (وهو يهم بمغادرة المكان) سمعاً وطاعة أيها الملك ، ها أنا ذا أرجع وقد أزحت عن كاهلي عباً أرهقني حمله وأنا أقطع الطريق إلى مصر..

صلاح الدين : قل لهم أيضاً ألا يفتحوا على أنفسهم جبهتين في وقت واحد .. إن هذا فوق طاقتهم ، وانني أخشى عليهم من الضياع ..

- المشهد الحادي عشر -

قلعة حلب .. سعد الدين كمشتكين متولي القلعة ، وشمس الدين ابن الداية كبير أمراء نور الدين ..

كمشتكين : (وهو يقرأ رسالة في يده) ها قد تأكد حدسي .. إنه يتحفز للانقضاض.

ابن الداية : كنت أتمنى أن أسمع غير هذا !!

كمشتكين : ولكنه الشيء الوحيد المؤكد .. للأسف .. (ينقر على الرسالة) إنها من عز الدين مسعود في الموصل وهو بحكم موقعه يعرف الكثير ..

ابن الداية : (بانفعال مكبوت) مشكلتكم أنكم تتصورون دائماً ما تتوهمونه أو توسوس به نفوسكم الشيء الوحيد الممكن ..

كمشتكين : هذا ما يجيء به الغادون والرائحون ، ويصعب يا ابن الداية تغطية الشمس بالغربال ..

ابن الداية : (غير ملتفت إليه) كرة الثلج تبدأ نواة صغيرة ، لكنها عندما تتدحرج تنضاف إليها طبقات من الرمل والوحل والجليد ، فما تلبث أن تتضخّم .. أن تصير شيئاً آخر .. فلو أننا قدرنا على وقف تدحرجها لكانت النتيجة شيئاً آخر تماماً ..

كمشتكين : ولكن ..

ابن الداية : (مسترسلاً) سواء كنت محقاً أم غير محق ، فإن ما كنت أتمنى سماعه بالنسبة لي على الأقل ، شيئاً آخر ، نقطة ارتكاز في موضع ما عبر هذا العالم المضطرب يمكن أن نقف عليها لكي نعاين الأمور بصورة أكثر موضوعية وعدلاً وإحكاماً .. لقد علمني نور الدين رحمه الله الكثير .. لكنني لم استوعب بعد كل تعاليمه .. وهذا على أية حال يكفي ، وأسأل الله أن يعينني على مواصلة الطريق .. أريدكم فقط مساعدة الصالح على احتواء التجربة .. على إنضاجها ، فإنه لا يزال صغيراً بعد ..

كمشتكين : بقدر إعجابي برؤيتك النافذة للأمور يا ابن الداية .. بحساسيتك المدهشة لما يجب وما لا يجب ، فإنني لست معك في هذه النقطة ..

ابن الداية : لماذا وهي واضحة وضوح الشمس ؟!

كمشتكين : لأن كل الوقائع تؤكد أن صلاح الدين يريد أن يجعل من الملك الصالح طعماً للصيد الكبير الذي يحلم به .. أريدك يا ابن الداية أن تقدّر هذا وأن تكون معي لحماية الصبي الذي فقد حاميه من هذا المصير .. لست وحدي على أية حال .. فهناك الأمير خالد بن محمد وأبو صالح بن العجمي وينال بن حسان المنبجي وعدد كبير من غلمان نور الدين رحمه الله .. كلهم أدرك الخطر الذي يحيق بملكهم المسكين .. وهم حريصون على أن يعملوا يداً واحدة ضد كل من تسول له نفسه باستغلاله ، أو الالتفاف عليه ، أو اتخاذه طعماً !!

ابن الداية : بضاعتك المزجاة يا كمشتكين اشتريت منها كثيراً حتى فاضت بها جيوبي .. وسوق الشام مثقل بها هذه الأيام .. لقد ازداد العرض فرخصت الأسعار .. أريد شيئاً جديداً .. بضاعة نادرة ، غالية الثمن ، تغريني على دفع المبلغ الكبير ..

كمشتكين : لا أفهم قصدك !

ابن الداية : هل ثمة شيء آخر غير الذي تريد أن تقوله ؟

كمشتكين : (وقد أسقط في يده) لا .. أبداً ..

ابن الداية : بالأمس جاءني ابن الجمّال يحمل شيئاً آخر تماماً.

كمشتكين : ليس كل ما يقال هو الصواب ..

ابن الداية : ابن الجمّال ممن أثق بهم .. إنني أكاد ألمس صدقه بيدي هاتين .. هناك لحسن الحظ نمط من الناس لا يملك القدرة على المناورة ، على الدوران قبالة الأشياء .. إنهم يذهبون إلى أهدافهم مباشرة .. يقولون ما يعتمل في نفوسهم أو تختزنه ذاكرتهم دونما أي قدر من الإضافة أو الانتقاص .. ابن الجمّال هو واحد من هؤلاء ولهذا اخترته من دون الناس للذهاب إلى مصر ..

كمشتكين : (محاولاً أن يداري هزيمته) وما الذي قال ؟

ابن الداية : الناصر صلاح الدين لن يطعن الصالح من الخلف .. لقد كان مخلصاً لأبيه ولن يتنكر للمحبة التي أسبغها عليه ، للثقة التي منحه إياها فدفع به إلى العالم ولم يبلغ الثلاثين من العمر ، لكي يحمل راية سيده في الآفاق ..

كمشتكين : أتمنى هذا أيها الأمير .. وفي حالة كهذه فإن الأمور ستصير على ما تشتهي .. وتريد ..

ابن الداية : ليس المهم أن تسير الأمور على ما تشتهي .. هنالك مطالب أخرى أكبر بكثير وأبعد في الزمن والمكان .. إنها مطالب اللحظة التاريخية أيها القائد ، وهي تتطلب شيئاً مؤكداً .. شيئاً محدداً .. فإذا لم نكن قادرين عليها لهذا السبب أو ذاك .. بل ربما لهذه الجدران الكالحة التي يقيمها بعض القادة والأمراء بين الصالح وبين العالم ، فحينذاك يمكن أن يجيء صلاح الدين ليملأ الفراغ .. مستجيباً لنداء اللحظة .. يجيء ليس باختياري أو اختيارك ولكن بقدر الله !

كمشتكين : أمام الملك الصالح الكثير .. وسيكبر إن شاء الله وسيكون كفوءاً للمهمة الصعبة .. يكفي أنه تلقّى الإشارة عن أبيه ..

ابن الداية : (غير ملتفت إليه) التحديات كثيرة وجماهير المسلمين تنتظر الرجل الذي يستجيب لها ويتفوق عليها ، ويجتاز الامتحان العسير .. ولا يهمها أن يكون ابن نور الدين أو لا يكون .. ومن يدري فلعل الناصر صلاح الدين سيكون هذا الرجل .. إنني اعترف أنه أكثر قدرة منا جميعاً وأشد نفاذاً .. لقد كتب علينا وعلى الملك الصالح الدخول في سباق غير متكافئ على الإطلاق .. بدأت لحظاته الأولى والناصر يفوتنا مئات الفراسخ فكيف سيتسنى لنا اللحاق به ؟ ومع ذلك وبقدر ما يتعلق الأمر بي فإنني سأحاول يا كمشتكين لكي لا تقول أنني انهزمت منذ اللحظة الأولى .. ومن يدري فلعل الرغبة في اللحاق .. الرغبة التي ستزداد سعاراً بما ستضعونه عليها من حطب وتنفخونه فيها .. هذه الرغبة قد تجعلني ابتعد قليلاً عن قناعاتي ، والأمر كله أيها القائد المحنّك بيد الله !

– المشهد الثاني عشر –

القاهرة ، قصر صلاح الدين وبمعيته بهاء الدين قراقوش ..

صلاح الدين : ما توقعته صار حقيقة يا بهاء الدين.

بهاء الدين : كنت مثلك تماماً أقدّر هذا .. فلم تكن المعادلة في مصلحة الملك الصالح على الإطلاق .. إنه صغير بعد على مهارات اللاعبين الذين يحيطون به .. يملك الذكاء بكل تأكيد ، ولكن تعوزه الخبرة ..

صلاح الدين : والوقت ليس في صالحنا ولا صالحه ، ستظل الهوّة قائمة .. ومن يدري فلعلها تزداد عمقاً لأنهم سيحاولون هذا من أجل أن تظل المبادرة بأيديهم ويظل الصالح أسير مطامحهم التي لا تقف عند حد .. عبر هذه الثغرة أخشى أن تضيع منجزات الملك العادل رحمه الله ..

بهاء الدين : والعماد .. وابن الداية ؟

صلاح الدين : إنهم قلة يا بهاء الدين .. يملكون الإخلاص والخبرة بكل تأكيد ، لكنهم سيصبحون بمرور الوقت أشبه بالجزر المنعزلة وسط بحر شاسع متلاطم الأمواج .. إنهم يحاصرونهم وأخشى أن يضيع صوتهم إلى الأبد ..

بهاء الدين : من أجل هذا كان رأيي دائماً أن تتحرك أيها السلطان ، وبالسرعة التي تتطلبها الحالة التاريخية ، وإلا ضاع كل شيء .. قد تقول بأن هناك اعتبارات معينة .. حواجز من نوع ما قد تقف بينك وبين الذهاب إلى هدفك الملح هذا .. لكن ، في وضع كهذا ، يتحتم تجاوز كل الحواجز والاعتبارات ما دام أن الهدف مشروع .. بل أكثر من هذا .. إنه إذا أردت الحق ضرورة لا خيار لك فيها ..

صلاح الدين : أعرف ما سيقوله الناس .. وليس من مصلحتي أن أضع نفسي في أفواههم ..

بهاء الدين : هناك قلة من الناس .. وهناك أيضاً جماهير الناس .. وأنت أيها السلطان ستنفذ مطالب هذه الأخيرة ، وهي أكثر عمقاً وحضوراً وامتداداً .. أما الفئة التي ستحكي وتقول وتنشر الأراجيف فلا عليك منها ، وهي موجودة في كل زمن وكان .. إنها أشبه بالعائق الذي يقف في طريق الأهداف المشروعة ، لابد من عبوره للوصول إلى الحلقة الأهم.. إلى الجماهير التي تنتظر رجلها ..

صلاح الدين : (مبتسماً) رغم صدقك الذي خبرته جيداً فإنني أتوجس اندفاعك خيفة ..

بهاء الدين : (مبتسماً هو الآخر) أرجو ألاّ تقول بأنني بمديحي هذا أذهب بأجرك.

صلاح الدين : ها أنت ذا تقولها بلسانك ..

بهاء الدين : (بحرارة) يشهد الله أن ما يجري هناك ، قريباً من تخوم الغزاة ، ينام ويقعد معي .. لقد عشت بصحبتك تحت خيمة السلطان الراحل وكنت أتابعكما وأنتما تقيمان البناء ، لبنة لبنة ، ويحزنني أن يتعرض للضياع..

صلاح الدين : إذا رحلت إلى بلاد الشام فسأحملك ما تطيق وما لا تطيق ..

بهاء الدين : كنت أخمّن هذا .. ولذا فإن فراقك سيرهقني مرتين ..

صلاح الدين : إذا قدر لي أن أرجع فإنني أريد أن أبدأ البناء بإذن الله ، وسأحملك يا قراقوش مهمة الإشراف عليه فأنت خير من يتولى ذلك ..

بهاء الدين : ولكن ..

صلاح الدين : (مقاطعاً) بدون لكن هذه .. فإنك تعلم أنني إذا عهدت إلى أحد بمهمة ما بعد الاقتناع تماماً بكفاءاته ، وقدرته على إنجازها بالصيغة المرتجاة، فإنني لن أقبل منه عذراً على الإطلاق ..

بهاء الدين : ولكن الأمر بالنسبة لي يختلف تماماً .. إن مهامي الإدارية تفيض عن قدرتي .. وهناك من رجالك من يقدر على أداء المهمة .. أخوك الملك العادل مثلاً .. أو حتى القاضي الفاضل ..

صلاح الدين : (مسترسلاً) الأسوار التي تحيط بالقطائع والفسطاط والعسكر والقاهرة جميعاً .. القلعة التي تطل عليها من جبل المقطم وتحرسها .. هناك أيضاً ضمانات الماء .. لا تنس أنني سأكون إلى جانبك في متابعة العمل فلا تبتئس .. لن أسمح للفرنجة أن يجرّوني بعيداً إلى بلاد الشام تاركاً ظهري مكشوفاً في مصر .. القاهرة يا بهاء الدين هي الظهر

والمنطلق وبدونها سنضيع ، وأنت خير من يتولى المهمة ويقطع الطريق على أحلام الغزاة .. إنك ستدّخر لنفسك أجراً كبيراً عند الله ..

بهاء الدين : لكنك تكلفني فوق ما أطيق ، وها أنا ذا كما ترى أشيخ قبل الأوان .. لقد تعبت وأريد أن ارتاح ..

صلاح الدين : (مبتسماً) الطيور – كما يقول المثل – تقع على أشكالها .. فأنا وأنت ومن قبلنا نور الدين محمود رحمه الله ، صنف من الناس كتب عليهم أن يمزجوا الليل بالنهار .. ألا يكفّوا عن العمل لحظة واحدة .. وان يشيخوا قبل الأوان .. ذلك قدر الله وما نحن إلا ستار لقدره .. فلنرض بنصيبنا إذا كان هذا مما يرضي الله ..

بهاء الدين : (بحزن) الحمد لله ..

(يدخل الحاجب ويهمس في أذن صلاح الدين)

صلاح الدين : قل له فليدخل

(يدخل القاضي الفاضل)

القاضي الفاضل : أرجو ألا أكون قد قطعت عليكما ما أنتما فيه ..

صلاح الدين : لو كان الأمر كذلك لما سمحت لك بالدخول (يضحك) أيها الرجل الفاضل أنت كاتبي ومستشاري وكاتم أسراري ، فهل يعقل أن أخفي عليك شيئاً ؟

القاضي الفاضل : لعلك اقتنعت أخيراً بالذهاب إلى الشام ؟

بهاء الدين : هذه المسألة أصبحت بحكم المنتهية ، وعليك أنت أن تقنعه بالإيغال في الجزيرة الفراتية والأناضول .. إنها لو تركت بأيدي الأمراء والملوك الصغار فإن نور الدين نفسه رحمه الله ، لن يعذرنا أمام الله ..

– المشهد الثالث عشر –

عند مشارف الصحراء الشرقية على أطراف القاهرة

.. الناصر يحيط به رجاله ..

صلاح الدين : (لبهاء الدين قراقوش) لا داعي لأن أوصيك.

بهاء الدين : سأبذل ما في وسعي إن شاء الله فطب نفساً.

صلاح الدين : القاهرة هي المنطلق والحصن معاً .. وإذا ضاعت – لا قدر الله – ضاع كل شيء.

بهاء الدين : اطمئن أيها السلطان.

صلاح الدين : قد يقومون بمحاولة للالتفاف ، لإرغامي على التراجع عن أهدافي في الشام وفلسطين ، فيشنّون حملة على مصر .. لا تنسَ أن أوربا قديرة في كل لحظة على الزج بقواتها في جبهات جديدة .. إنني أخمّن هذا فالحذر الحذر ..

بهاء الدين : عندما يكتمل بناء القلعة في أحضان المقطم فلن تطالها ضواري الطير .. والسور سيحيط بالفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة من أقصاها إلى أقصاها .. سأحاول أن ابدأ العمل حتى قبل أن ترجع إن شاء الله .. سأضع تخطيطاته الأولى على الأقل ..

القاضي الفاضل : إنك تعرفه جيداً يا بهاء الدين .. لا يغمض له جفن إذا أحس أن هناك ثغرة .. ثغرة .. صغيرة قد يتسرب منها الأذى ..

صلاح الدين : لقد ذكرتني أيها الرجل .. فإن في الداخل .. في شرايين القاهرة نفسها ، بقعاً من نسيج السوء قد تتسبّب في أذى من نوع ما .. فكن على حذر منها يا قراقوش.

بهاء الدين : إنني منتبه إليهم جيداً .. وسأبذل جهدي .. والأمر كله بيد الله.

صلاح الدين : الحمد لله ..

القاضي الفاضل : سترجع إن شاء الله وترى كل شيء على ما يرام.

صلاح الدين : (وهو ينظر بحزن إلى القاهرة) ترى هل سيقدّر لي ذلك ؟

القاضي الفاضل : لقد رحلت كثيراً ثم ما لبثت أن عدت في كل مرة .. مصر .. هي دارك، ولا أعتقد أنك ستبعد كثيراً عن الأهل والدار ..

صلاح الدين : المهمة صعبة هذه المرة .. والخيوط شديدة التعقيد .. أحياناً أقول في نفسي أن التعامل مع العدوّ المكشوف أيسر بكثير من التعامل مع الأهل والعشيرة .. ولكن .. لابد مما ليس منه بد ..

– المشهد الرابع عشر –

قصر الملك الصالح في حلب .. الملك على فراش الاحتضار يحيط به عدد من أمرائه وبعض الأطباء..

الصالح : (يكافح آلام القولنج الحادة) .. الحمد لله ..

الرحبي : (وهو يضع يده على بطنه) ليس ثمة ما يقلق أيها الملك ، والمسألة مسألة وقت فحسب ..

الصالح : (يبتسم بصعوبة) هوّن عليك يا رجل فالأمر كله بيد الله ..

الرحبي : (بتوسل) لو أنك فقط قبلت نصحي !

الصالح : (دون التفات إليه) أن يأتي أو لا يأتي .. أن يسرع أو يتريث قليلاً .. فالأمر بالنسبة لي على الأقل ، سواء .. والمهم هو كيف ألقى الله ..

الرحبي : (مستمراً على توسله) ولكن ..

الصالح : قد يكون التعجيل فرصة جيدة لابن آدم .. أحياناً ..

ابن الداية : لا تقل هذا أيها الملك .. أطال الله في عمرك.

الصالح : (مسترسلاً) لأننا سنذهب في هذه الحالة محملّين بذنوب أقل .. ومع ذلك (تهاجمه نوبة ألم أخرى) لا حول ولا قوة إلا بالله.

ابن الداية : لقد فعلت دائماً ما يرضي الله ..

الصالح : لست أنت الذي تقول هذا ..

ابن الداية : كنت تملك القدرة على التجرّد من كل شيء .. على الانسلاخ عن نداءات الحياة الدنيا .. بينما يتهافت الآخرون عليها ..

الصالح : ذلك ما تعلمته من أبي فلا فضل لي فيه ولا منّة على أحد ..

ابن الداية : يرحمك الله يا نور الدين ، فقد خلفت بينك وبين الآخرين طريقاً طويلاً .. وسلكت مرتقى صعباً .. فمن يقدر على اللحاق بك أيها الشهيد ؟

الصالح : (يعتصره الوجع) الحمد .. لله ..

الرحبي : جرعة واحدة أيها الملك وسترتاح بعدها.

ابن الداية : دعه .. فإنني أعرفه جيداً عندما يرفض شيئاً ، لا يمكن لقوة في الأرض أن تثنيه عن رأيه ..

الرحبي : ولكنه الدواء الوحيد .. الذي لم تجربه بعد ..

ابن الداية : فيما بعد .. قد يبادر هو بتناوله .. أما الآن ؟

الصالح : (وقد تحرّر قليلاً من آلامه) كيف حال الأمراء والموظفين يا شمس الدين ؟

ابن الداية : بخير والحمد لله .. لا يهمهم سوى الاطمئنان على صحتك ..

الصالح : (لأبي صالح بن العجمي) وأنت ماذا تقول ؟

ابن العجمي : الاطمئنان على صحتك أولاً أيها الملك .. وبدون هذا فلن يكونوا بخير!

الصالح : دعنا من هذا .. وقل لهم ، وأنت معهم أيضاً فلا تقلق ، لقد استطاعوا أن يقنعوني بوجهة نظرهم !

ابن العجمي : ربما لكونها عين الصواب.

الصالح : ليس بالضرورة ، ولكنك عندما تسمع صوتاً واحداً ، بإيقاع واحد ومفردات واحدة على مدى عشر سنين فإنك تضطر لأن تسلم به وإلا عانيت كثيراً .. ابن الداية والعماد حاولا اختراق الصوت .. بذلا جهداً صعباً لكسر الحصار واسماعي شيئاً آخر .. لكني لم التفت إليهما إلا في وقت متأخر .. متأخر جداً .. لأن الصوت الأكثر قوة ودفقاً كان قد جرفني بعيداً .. ربما لأنني بدأت السباحة صبياً .. (تداهمه نوبة ألم شديدة) على أية حال لا أريد أن أعلّق خطأي على مشجب المبررات .. إنه نوع من الهروب ..

ابن العجمي : (بذهول) لا أفهم بالضبط ما تقصد إليه ..

الصالح : تعرف جيداً إنني أوصيت بحلب لابن عمي عز الدين مسعود صاحب الموصل ..

ابن العجمي : أعرف هذا ..

الصالح : قلت لكم يومها أن اللحظة التاريخية تتطلب هذا ..

ابن العجمي : بالتأكيد.

الصالح : لقد كنت مخطئاً يا ابن العجمي .. أتدري لماذا ؟

ابن العجمي : (ينظر بدهشة دون أن يقول شيئاً) ..

الصالح : رد فعل محتوم للصوت الملّح الذي ظل يحاصرني عشر سنين.

ابن العجمي : ولكنه الحل الوحيد الممكن على أية حال.

الصالح : أبداً .. فإن هناك حلولاً أخرى بالتأكيد ، وقد يكون من بينها الحل الأكثر انسجاماً مع اللحظة التاريخية ، ولكنني تجاوزته للأسف .. أحياناً يرى الإنسان قدح الماء يتدحرج أمامه وهو يعرف يقيناً بأنه سينكسر ويتحطّم ، وان بمقدوره أن يوقف تدحرجه .. ولكنه لا يفعل..

ابن العجمي : لماذا ؟

الصالح : إحساس مفاجئ بالإعياء واللا جدوى .. شلل موقوت من نوع ما يجعله ينظر بعجز إلى الأشياء وهي تتكسّر قبالته ..

ابن العجمي : ولكن ..

الصالح : (غير ملتفت إليه) لقد فعلت شيئاً من هذا القبيل وأنا أسلخ حلب عن موقعها الصحيح وأمنحها لابن عمي القابع بعيداً في الموصل ، آمناً مطمئناً لا تمسه النار ولا تؤرقه صيحات إخوانه الذين تذبحهم خناجر الفرنجة ..

ابن العجمي : (بنفاد صبر) لا أدرك بالضبط ما تريد أن تقوله أيها الملك ..

الصالح : (يلقي نظرة بعيدة) كان علي أن أسلمها لصلاح الدين (تباغته نوبة وجع اشد إيلاماً) ولكن .. سبق .. السيف .. العذل.

ابن العجمي : أبداً أيها الملك ..

الرحبي : (بنفاد صبر) دعه يا ابن العجمي فإنه في وضع لا يسمح له بالكلام.. إنه بأمس الحاجة إلى الهدوء والاسترخاء ..

الصالح : (يخرج الكلمات بصعوبة) لقد خدعت يا ابن العجمي .. أبي رحمه الله تركني صغيراً بأكثر مما يجب .. صغيراً لا أملك بداهات الخبرة فاستجبت للصوت الواحد الذي ظل يضغط عليّ عشر سنين دون أن أتساءل فيما إذا كان هناك صوت آخر قد يكون أكثر صدقاً .. آه (يتلوى من الألم).

الرحبي : جرعة واحدة أيها الملك .. لقد أفتى بجوازها الفقهاء في حالتك هذه فلا تحزن ..

الصالح : (يشير إلى ابن العجمي) لقد تلقيت من أيدي هؤلاء جرعات كبيرة .. جرعات مترعة بالمرارة .. فلم يبق عندي متسع للمزيد ..

الرحبي : تلك مسألة أخرى .. ولابد من هذه ..

الصالح : امنحوني اللحظة الأخيرة .. إنها خياري الوحيد الباقي .. لقد سألت الفقهاء : إن الله تعالى قرّب أجلي .. أيؤخره شرب الخمر ؟ قالوا : لا، فأجبتهم : فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم علي (يلفظ أنفاسه).

- المشهد الخامس عشر -

(٥ محرم عام ٥٧٨هـ) الناصر صلاح الدين يمتطي صهوة جواده عند حافات المقطم يحيط به عدد من الأمراء والفضلاء.

بهاء الدين : هو ذا زمن الفصل الذي انتظرته طويلاً .. بعدها ستعود إن شاء الله .. أكثر لهفة وشوقاً هذه المرة من أي وقت مضى ..

صلاح الدين : ذلك من أمر الله ..

يوغل ورجاله في الصحراء وما يلبث صوت شجي يجيء من مكان مجهول وهو يردد :

تمتّع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار !

صلاح الدين : (وهو ينصت للصوت يردد بحزن) :

تمتّع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار !

قراقوش : (ينظر إليه محتجاً دون أن يقول شيئاً) ..

صلاح الدين : (لقراقوش) ليست مسألة إدارية لكي تحسمها بسرعة يا قراقوش.

القاضي الفاضل : إنما هي كلمات تقال !

صلاح الدين : ومع ذلك .. فمن يدري ؟ لقد تعاملت أنا كذلك مع الكلمات أيها القاضي الفاضل .. إنها تملك تأثيراً عجيباً .. أحياناً تخترق التاريخ نفسه لكي تتموضع في مكان ما من نسيجه المتنامي فتصير فعلاً مرئياً .. شيئاً ذا طول وعرض وعمق يملك حضوره في قلب الحياة .. إنني أعرفها جيداً .. وهي يمكن أن تمنحنا إشاراتها من بعيد فتضيء أمامنا الطريق .. فقط شرط ألا نحاول أن نأسرها بمقولاتنا ومواضعاتنا العملية .. شرط ألا نرغمها على الانزلاق في مجرى اللغة اليومية العادية ..

القاضي الفاضل : ها أنت ذا تعلمني مبادئ التعامل مع الكلمات .. أنا الذي جعلتها خبزي اليومي .. طعامي وشرابي ..

صلاح الدين : إذن فأعط هذه اللحظة المساحة التي تستحقها ، فإنني على يقين في طبقة ما من وجداني ، من أن هذا الصوت لا يتشكل الآن جزافاً .. إنه يعد بشيء .. يقول شيئاً ما .. وإنني أعرف جيداً ما الذي يريد أن يقول .. على أية حال .. إنني ذاهب إلى الشام وفلسطين هذه المرة.. ولسوف تكون رحلتي الأخيرة ، ولن أرجع إلى مصر كرة أخرى ..

(يشد على عنان جواده وينطلق مسرعاً ثم ما يلبث أن يغيب وعدد من أصحابه في عمق الصحراء).

- المشهد السادس عشر -

قلعة حلب : صلاح الدين مع كبار قادته ورجالاته.

صلاح الدين : (وهو يقرأ رسالة ما يلبث أن يطويها) إنها من الديوان العزيز يحثّني فيها أمير المؤمنين الخليفة الناصر على المضي قدماً في توحيد الطاقات ..

الملك العادل : إنه أيها السلطان يعرف جيداً ما تعنيه محاولتك .. ومن أجل هذا باركها بحرارة ..

صلاح الدين : ولكن الآخرين لا يريدون أن يعرفوا !

الملك العادل : لا عليك منهم .. فإنهم سيذعنون لمشيئتك في نهاية الأمر.

صلاح الدين : لا تقل هذا أيها الرجل .. فهي ليست مشيئتي وما نحن إلا ستار لقدر الله ..

الملك العادل : ثمة مسافات قصيرة متبقية .. وعليك أن تقطعها قبل يوم الفصل..

صلاح الدين : (بأسى) قصيرة ؟ أبداً أيها الملك ، فها أنت ذا ترى كم تستنزف من وقتي وجهدي .. لقد هدّني المرض والإعياء .. وبدأت أشيخ قبل الأوان .. مشكلتهم أنهم يتشبثون بقياس الأمور بالأذرعة والأشبار .. مقياس واحد لا يتغير ولا يتبدل ، رغم تغير الظروف والرجال .. إن أية محاولة لجعلهم يتوحدّون في نهر التاريخ المتدفق ويندفعون مع سننه وليس ضدها .. تفزعهم .. يتصورونها ستقذف بهم بعيداً عن مواقعهم ..

الملك العادل : إنه الحرص على المنافع العاجلة والتشبث بإغراءات الحكم والسلطان..

صلاح الدين : أعرف هذا جيداً ولذا أردت أن أدخل عليهم من خلاله .. أن أتركهم في مواقعهم يفعلون ما يشاءون دون أن اقتحم عليهم سلطانهم ، شرط أن يعينوني على ما نذرت نفسي من أجله .. أن يمدّوني بالمال والرجال في اللحظة التي تتطلب ذلك .. إن ساعة الفصل ستجعلنا ننزف كثيراً .. فإن لم أطمئن إلى ضمانات الإمداد للتعويض عن النزيف ، فإنني سأضيع ..

أحد القادة : أعتقد أيها السلطان أن الكثير منهم أعطوك هذه الضمانات .. أدركوا أخيراً أنك لا تريد عروشهم ولكن رجالهم وإمدادهم فمنحوك ما تريد ..

صلاح الدين : ولكن بعضهم لا يزال مصراً على الرفض ..

القائد : إنهم استثناء لا يقاس عليه .. على أية حال ..

الملك العادل : لا زلت أذكر كيف استعصت الموصل عليك .. كيف قاومتك كما لو أنها تدافع عن مقدّساتها تجاه الغزاة الفرنجة أنفسهم .. عبثاً حاولت إقناعهم بأن الأمر يختلف .. يختلف تماماً ..

صلاح الدين : أتدري أيها الملك ؟ إن الناس عبيد ما اعتادوه ، وهم قد ألفوا على مدى عشرات السنين نوعاً واحداً من الرد .. نوعاً يقوم على الاعتقاد بأن أية محاولة لتوحيد الطاقة تجيء من خارج أسوارهم ، إنما هي عدوان عليهم .. محاولة للابتزاز .. تحت أي شعار كانت ، وبالتالي فإن ردود أفعالهم ستتسارع قبالة بلدوين أو صلاح الدين !

الملك العادل : أسمح لي أيها السلطان .. فإن حساسيتك المفرطة تجاه الأشياء هي التي جعلتك تتراجع أمام الموصل ومواقع كثيرة أخرى .. مرة ومرتين وثلاثاً .. إنك لا تريد أن تدخلها عنوة .. أو على الأقل لا تريد أن تسفك وأنت تدخلها قطرة دم واحدة باعتبارها بلداً مسلماً .. وهكذا تتحول إلى اعتماد لغة أخرى لتحقيق التواصل بين الأمراء وحشد طاقاتهم لليوم الموعود .. وبما أن بعضهم لا يفهم هذه اللغة فإنه سيستعصي عليك .. عماد الدين زنكي رحمه الله تعامل مع المشكلة بأسلوب آخر .. واعتقد أنه مع فئة كهذه ، الأسلوب الوحيد الممكن .. والمثل يقول : آخر الدواء الكيّ ..

صلاح الدين : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى .. صدق رسول الله .. والنتائج النهائية هي التي تكشف الدوافع الحقيقية وحينذاك يتميز الذهب من التراب ..

قد تكون لزنكي مبرراته .. كان مفروضاً عليه أن ينشئ إمارة من العدم .. أن يبدأ من نقطة الصفر ، قبالة خصم متجذّر في الأرض منتشر في الآفاق .. أما في حالتي .. فلا ..

الملك العادل : ولكنك ستخسر كثيراً ، والزمن لا يحابي أحداً أيها السلطان ..

صلاح الدين : سأواصل محاولتي حتى حافات الاحتمال الأخيرة ، وعند ذاك سأمنح نفسي العذر أمام الله سبحانه وتعالى .. أتدري أيها الملك ؟ إنك إذا اقتنعت – لهذا السبب أو ذاك – بصيغة معينة من العمل وتشرّب عقلك وروحك نبضها ومفرداتها .. فإنه يصعب عليك أن تتحول إلى صيغة أخرى مهما قدمت من تضحيات .. إنني واثق من أنني سأنتصر عليهم في نهاية الأمر بصيغتي هذه : سأبقيهم على عروشهم .. سأجعل حصونهم وأبراجهم تحميهم مني ومن جماهير المسلمين داخل مواقعهم نفسها .. لكني سآخذ منهم ما أريد ، بإذن الله، وها أنت ذا ترى بنفسك انني حققت الكثير مما أريد ..

– المشهد السابع عشر –

معسكر كبير إلى الجنوب من دمشق تنتشر فيه مجموعات كثيفة من الخيام .. يرى صلاح الدين بمعية حشد من رجاله : العماد الأصفهاني .. وأخيه العادل وتقي الدين عمر .. وآخرين.

تقي الدين : لقد صدق حدسك أيها السلطان فها هي ذي جيوش المدن والإمارات الإسلامية تأتيك بإمدادها من الرجال والعتاد والمال .. من كل مكان .. من الموصل .. والجزيرة .. والأناضول .. بعضها بقيادة الأمراء أنفسهم ..

صلاح الدين : (وهو يضع يده على كتف العادل) قل هذا للعادل .. فقد كان له رأي آخر ..

العادل : إنه الحرص أيها السلطان ..

صلاح الدين : كلمة تقال .. ولكنها إذا أردت الحق سلاح ذو حدين قد يخدمك وقد يذبحك ..

تقي الدين : الحمد لله .. فها أنت ذا تحصد ما زرعته يداك على مكث .. والعبرة بالنتائج ..

صلاح الدين : (وهو يمد بصره إلى الأفق البعيد حيث تنتشر الخيام إلى ما وراء المنظور) ها هم يجيئون من كل مكان .. وهذا سيمنحني ضمانات أقوى بإذن الله .. لكن ما يفرحني أكثر من هذا كله هو ما تنطوي عليه الظاهرة نفسها من مغزى .. ان يسترجع المسلمون قدرتهم على التوحّد قبالة تحديات التاريخ .. أن يصيروا وأمراءهم وقادتهم يداً واحدة على من سواهم ، تماماً كما أراد لهم الله ورسوله أن يكونوا (يوجه كلامه للعماد الأصفهاني) أتدري يا عماد الدين ؟ نزوة الغضب كادت أكثر من مرة أن تخرجني عن الطريق ، وكان رجال من مثل العادل ينفخون فيها لكي يزيدوا جمرها .. أن أضرب بقوة على أيدي كل الأمراء والملوك الذين لم يدركوا هدفي الأخير .. ألا تأخذني بهم رحمة .. ولكني كنت سأخسرهم بكل تأكيد .. حتى لو جاءوني إلى هنا ، فإن الأمر سيختلف .. فالذي يأتيك طوعاً هو غيره عندما يرغم على العمل بعد أن تكون قد جرحته .. الآن لا آسف على شيء .. على السنين الطويلة ، والجهد القاسي من أجل أن أجعلهم يأتون بمحبة لكي يضعوا تحت تصرفي كل ما أريد !

(يدخل نور الدين بن قرا أرسلان الأرتقي أمير حصن كيفا وآمد في ديار بكر).

صلاح الدين : (يتقدم إليه ويحتضنه) حللت أهلاً ووطئت سهلاً أيها الأمير !

الأمير : كدت أيها السلطان أكتفي بإرسال جندي وأظل هناك في ديار بكر فقد يكفي هذا .. لكني عدلت في اللحظة الأخيرة قائلاً في نفسي : مم الخوف ؟ يمكنك الآن أن تترك أبواب حصن كيفا مشرعة على مصاريعها وتذهب بقواتك كلها لكي تقاتل الفرنجة .. وسترجع إليها لكي تجدها في انتظارك .. في لحظات كهذه أيها السلطان يتوحّد الجميع لكي يصيروا يداً واحدة تقاتل وتحمي .. وحينذاك لن يمس مدنهم سوء على الإطلاق .. سوء ممّ ؟ إذا كان الأمراء أنفسهم قد

صاروا جنوداً وصار هؤلاء قادة وأمراء .. ممّ ؟ وجماهير المسلمين غدت أمة واحدة تذود عن الديار ؟! على العكس أيها السلطان .. فإننا في اللحظات التي نتشبث فيها بمواقعنا ونعزلها عن المطالب الملحة للمسلمين ، فإننا نضعها في فوهة البركان ، حينذاك سنزداد التصاقاً بها لأننا نخشى عليها أن تطوى قبالة المطلب العام الذي تتوحّد فيه وتتلاشى كل التفاصيل والجزئيات ..

صلاح الدين : لقد أدرك نور الدين محمود ، رحمه الله ، هذا فتعامل مباشرة مع جماهير خصومه من أمراء المسلمين ، فما لبث هؤلاء أن وجدوا أنفسهم قبالة حالة تحتم عليهم الاندماج في المجرى العام وإلا ضاعوا .. وبهذا الأسلوب كسب الكثير ..

العماد الأصفهاني : إذا سمحت لي أيها السلطان.

صلاح الدين : قل يا رجل .. فإني أحب أن أسمع صوتك.

العماد : لقد شاءت إرادة الله أن يكون نور الدين حلقة وسطاً بينك وبين أبيه عماد الدين ..

صلاح الدين : كيف ؟

العماد : لقد عايشت هذه السلسلة المباركة من الرجال فرأيت أحدهم يتمم الآخر، يمضي بالراية مقداراً من الشوط ثم ما يلبث أن يسلمها للذي يليه لكي يواصل الطريق .. وفي كل مرحلة كان الظرف يتطلب شيئاً خاصاً .. شيئاً محدداً قد يختلف عما تتطلبه المراحل الأخرى .. آسف إذا كنت قد أسرفت في كلامي ..

صلاح الدين : (مبتسماً) قل يا عماد الدين كل ما عندك فقد اعتدنا على تزيينك الكلمات .. لم يعد بمقدورك أن تذهب إلى هدفك من أقصر طريق يا كاتب العصر .. فالديوان علّمك شيئاً آخر ..

العماد : معذرة أيها السلطان .. فالإنسان تبع لما اعتاد عليه ..

(يدخل أحد رجالات السلطان ويهمس في أذنه)

صلاح الدين : (للعماد) إنني مصر على الاستماع لوجهات نظرك بكل تفاصيلها ، فأنت تعرف أنني لا أستطيع الاستغناء عنها .. ولكن ليس قبل استقبال جند الموصل والاطمئنان على نزولهم في المكان المناسب ..

– المشهد الثامن عشر –

قصر الأمير رينولد شاتيون (أرناط) في قلعة الكرك .. الأمير بمعية عدد من قادته وموظفيه.

أرناط : (وهو يفرك يديه بارتياح) لقد كانت ضربة موفقة إذن ؟

ثلاثة من مستشاريه : (في وقت واحد) بكل تأكيد أيها الأمير ..

أرناط : منذ البدء ووجهة نظرنا جميعاً متوحّدة بهذا الخصوص.

المستشار رقم (١) : عصفوران بحجر واحد (يضحك)

المستشار رقم (٢) : بل ثلاثة عصافير.

المستشار رقم (٣) : بل أربعة إذا أردنا الدقة.

أرناط : المهم أننا ضربنا ضربتنا في الوقت المناسب ، يكفي أنها ستلقي الرعب في قلوب المسلمين .. ستجعلهم يفكرون عشرين مرة قبل أن يجازفوا باجتياز أرضي بحجة الذهاب إلى بيت الله الحرام ..

هنري بادوا : (رئيس الكتاب بشيء من عدم الارتياح) ولكنها أيها الأمير ..

أرناط : (غير مكترث به) ثم أننا حصلنا على مقادير جيدة من الأموال والمتاع.

المستشار رقم (١) : والأسرى.

المستشار رقم (٢) : والنساء.

المستشار رقم (٣) : وعدد لا بأس به من الرؤوس.

أرناط : لقد كان صيداً دسماً ما كنت أتصور أن نحظى به بهذا القدر من السهولة ..

هنري بادوا : لم تكن معركة متكافئة على أية حال ..

المستشار رقم (١) : ماذا تقصد أيها الكاتب العتيق ؟

المستشار رقم (٢) : حساباتك أيها المخضرم تصلح على الورق لكنها لا تمشي في الميدان..

المستشار رقم (٣) : يبدو أنك نسيت أن الحرب تقضي بتدمير اقتصاديات العدو واستنزاف قواه البشرية أيها الموسوس ..

أرناط : وفوق هذا كله فما هي إلا بداية أيها المستشارون وستليها ضربات أخرى .. لابد على أية حال من تدمير معنويات صلاح الدين ..

هنري بادوا : إذا سمحت لي أيها الأمير ..

المستشارون الثلاثة : (معاً) الأمير يعرف مقدماً ما ستقول فأولى بك أن تقفل فمك ..

هنري : (بغضب مكبوت) سأقفله في حالة واحدة .. أن يأمرني سيدي بذلك ..

أرناط : قل يا هنري فأنت شيخ مجرّب ولابد من سماع رأيك ..

المستشارون الثلاثة : ولكن ..

أرناط : دعوه فليقل ما عنده.

هنري : ليست حرباً هذه التي تتحدثون عنها يا سيدي.

أرناط : (بابتسامة ساخرة) ماذا تسميها إذن أيها الشيخ ؟

هنري : مجازفة !

أرناط : (بالابتسامة نفسها) كيف ؟!

هنري : سوف يستفز صلاح الدين ، خاصة وأنها تجيء في أعقاب هدنة عقدناها معه .. إنها إذا أردت الحق فعل خاطئ ، وأخشى أن يجيء الرد عليها قاسياً ..

أرناط : لن يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً ، فليهدأ بالك أيها الشيخ ..

هنري : كيف ؟

أرناط : لأنه مشغول في صراعاته التي لا تنتهي مع أمراء المسلمين .. إنهم كثيرون .. كثيرون جداً .. ومحاولته جمعهم على صعيد واحد محكوم عليها بالإعدام .. إنه يضيّع وقته سدى ..

هنري : ولكنه يا سيدي إذا أردت الحق ، تمكن من جمعهم فعلاً ، وها هم الآن يتدفقّون بجندهم على دمشق ..

المستشارون الثلاثة : أعمال استعراضية أيها المخضرم ..

أرناط : وهي قد لا تعني شيئاً على الإطلاق ..

هنري : إن الملك جاي نفسه قلق على النتائج التي قد تترتب على الحادث ، هكذا يقول كل الذين قدموا من أورشليم ..

أرناط : (بعصبية) لا تحاول أن تمد عنقك إلى ما هو أبعد من قدراتك الحقيقية يا مالك الحزين .. أنت كاتب إنشاء يا هنري لا أكثر ولا أقل، وما يتصل بالملك لا علاقة لك به .. فلا تحشر رأسك فيما لا يعنيك ..

المستشارون الثلاثة : نصحناك فلم تستمع لنصحنا .. قلنا لك أقفل فمك فإن هذه ليست ساحتك .. فلم تردّ علينا ..

أرناط : (بنفاد صبر) إذا لم يكن عندك شيء آخر .. شيء يستحق السماع فعلاً ، فأترك القاعة ، فإن لديّ مع مستشاريّ أموراً تقتضي الحسم السريع ولا أريدك تضييع وقتنا فيما لا جدوى منه ..

(يغادر هنري القاعة متعثراً بأذياله)

المستشار رقم (١) : هل كان من الضروري أيها الأمير أن يجيء لكي يجتمع معنا ؟

المستشار رقم (٢) : حقاً .. هل كان من الضروري ؟!

المستشار رقم (٣) : حقاً .. هل كان من الضروري ؟!

– المشهد التاسع عشر –

منظـر عـام لقـوات صـلاح الـدين وهـي تغـادر معسـكراتها جنـوبي دمشـق .. الواحـدة تلـو الأخرى .. يرى صلاح الدين في المقدمة ممتطياً جـواده وإلـى جـواره أخـوه وعـدد مـن أبنائـه وأمرائـه وقادتـه .. فضـلاً عـن العماد الأصفهاني .. وآخرين ..

صلاح الدين : (بصوت جهوري) باسم الله وعلى بركة الله ..

القادة والجند : (معاً) الله أكبر .. الله أكبر ..

صلاح الدين : (لشقيقه العادل) الحمد لله أيها الملك .. الحمد لله أولاً وأخيراً.

العادل : لقد بذرت أيها السلطان .. وها قد حان موعد القطاف ..

صلاح الدين : قل إن شاء الله ..

العادل : إن شاء الله ..

المشطوب الهكاري : (وهو يتزاحم بفرسه للاقتراب من صلاح الدين) هذا يوم الفصل الذي انتظرناه طويلاً أيها السلطان .. لا أكتمك القول أنني من جهتي كنت ألومك ، بيني وبين نفسي ، أعتب عليك بمرارة .. خمس سنوات وأنت تعد العدة ، وتشكمنا عن فعل شيء ما .. شيء ذي قيمة .. وقلت في نفسي : أي صبر هذا ؟! حتى لقد خشيت أن يتجاوز حدوده المعقولة فيتسرب اليأس إلى الجند والقادة ، وشيئاً فشيئاً يفقدون توترهم المحفز ، وترتخي أيديهم على مقابض السيوف ..

صلاح الدين : (يضع يده على كتفه ويشير بالأخرى جنوباً إلى فلسطين) أنظر يا سيف الدين .. إنهم جاءوا من أجل هذه ، ولن يسلّموها بالسهولة التي تتصور .. سيبذلون المستحيل من أجل البقاء فيها ، ولن تكون محاولة إخراجهم نزهة نتسلى خلالها بعروض في اللعب بالسيوف .. لقد كنت أقدّر دائماً أن حجم الجهد الذي يبذله خصمك يجب أن يقابل بجهد مثله .. جهد في طوله وعرضه وعمقه ، وإلا فإنها المجازفة التي لا تؤمن عواقبها ، فضلاً عن أنها قد لا تعني شيئاً .. لقد كنت على استعداد لأن أطيل في أمد اللقاء خمس سنوات أخرى ، إذا كانت ضمانات المحاولة تقتضي هذا .. لقد جاءوا من أوربا يا سيف الدين ، وهم قد نسجوا قدراتهم خيطاً خيطاً وعلى مدى يوشك أن يصير قرناً .. افترى في السنوات الخمس التي قضيتها في الإعداد أمداً طويلاً ؟

العادل : إنها الحماسة التي يشعل الإيمان أوارها أيها السلطان ، وإنني أعرف المشطوب جيداً .. إنه مقاتل من طراز أوّل .. فدائي يرمي بنفسه في مستنقع الموت .. عاشق من نوع فريد هذا الرجل .. ولسوف تخبره بنفسك ..

صلاح الدين : (يده لا تزال على كتف المشطوب) المشطوب وكل الأمراء والمقاتلين الذين جاءوا من مشارق عالم الإسلام ومغاربه ، يحملون العشق نفسه .. هذا هو الوجه الآخر .. الوجه الضروري الآخر للصورة ، وقد سبقتني أيها الملك في الحديث عنه .. ولن نقدر على بلوغ هدفنا المرتجى بدون الوجهين معاً .. الإعداد والعشق ..

العماد الأصفهاني : (يتزاحم هو الآخر للاقتراب من صلاح الدين وأمرائه) ائذن لي أن أكون قريباً منك أيها السلطان ، فقد آليت على نفسي ألا تفلت من قلمي حركة واحدة مما يتشكل على الأرض .. أو كلمة مما يقال ..

صلاح الدين : (مبتسماً) اقترب يا شيخ الكتّاب .. أيها الرجل المخضرم الذي يكلف نفسه ما لا تطيق .. كان بمقدورك أن تظل في ديوانك وأن تتلقى التفاصيل ممن يأتيك بها أولاً بأول لكي تتولى تسجيلها .. ولكني أعرفك جيداً مذ كنت صبياً .. الرجل الذي يبحث عن المتاعب ..

العماد : يكفي أن أكون إلى جوارك لكي أنسَ شيخوختي وأستردّ شبابي .. لن أكون مبالغاً أيها السلطان إذا قلت لك أنني الآن لا أملك فقط الاستعداد لاجتياز المرحلة الطويلة وتسجيل وقائعها .. ولكن لحمل السيف وكتابة الحدث نفسه لا الحديث عنه !

صلاح الدين : ها قد عدت إلى التلاعب بالألفاظ .. إنك تتعب مستمعيك أيها الرجل..

العادل : (لصلاح الدين) ولكنك والسلطان نور الدين رحمه الله مددتما له الحبل على الغارب فأوغل في مناورة الكلمات .. ليس ذنبه على أية حال ..

العماد : لك أن تقول ما تشاء أيها الملك فالرجل هو أسلوبه ولن أتخلى عن أسلوبي حتى لو أصدر السلطان إليّ أوامره ، فها هنا يمكن أن أعصيه !

صلاح الدين : (يضحك) بارك الله فيك وفي قلمك يا عماد الدين فأمض على بركة الله ..

– المشهد العشرون –

عند مشارف حطين حيث تنتشر قوات الفرنجة بكثافة ملحوظة .. في الجهة القريبة تنهض خيمة الملك جاي لوزجنان .. ويرى عند فتحتها واقفاً وإلى جواره عدد من أمرائه وقادته ..

الملك: لقد وصلوا إذن ..

الأمير روبير صمويل: نعم أيها الملك وعسكروا هناك (يشير بيده) فيما وراء الروابي المحيطة بمرتفعات حطين ..

الملك : إذا استطعت أن أحدد هدفهم التالي .. أو أخمنّه على الأقل فإنني أعتبر المعركة محسومة لصالحي ..

القائد بيتر النورماني : أغلب الظن أنهم سيتحركون باتجاه المرتفعات نفسها .. إنهم يتهيأون الآن ..

الملك : معنى هذا يا بيتر أنهم يستهدفون حماية ظهورهم بالشواخص الطبيعية لكي يتفرغوا لنا دون قلق أو خوف ..

بيتر : ربما ..

الملك : (بارتياح) ومعنى هذا أيضاً أنهم وضعوا أنفسهم في المصيدة ..

الأمير روبير : كيف ؟

الملك : لن تتاح لهم أية فرصة للتراجع ، لقد حكموا على أنفسهم بقطع خطوط الرجعة .. وقد يعرّضهم هذا لحصاد مرير ..

بيتر : لا أظن أن صلاح الدين يضع نفسه بسهولة في مأزق كهذا ..

الملك : (بقلق) ماذا تقصد ؟

بيتر : ربما يكون له قصد ما .. وبالتالي ستكون حركته هذه محسوبة له وليست عليه ..

الأمير روبير : ليس بالضرورة يا بيتر .. فما من قائد ممتاز إلاّ ويخطئ في حياته ولو مرة واحدة .. وحين ذاك سيكون الخطأ كبيراً .. خطأ من النوع القاتل بمستوى قدراته تماماً (يضحك) ..

بيتر : ولكني من جهتي ..

الملك : (يقاطعه بشيء من نفاد الصبر حيث تكسو وجهه فجأة موجة من الاكتئاب والعصبية) لا أحب الجدل الطويل يا بيتر .. الجدل العقيم الذي لا يتمخض عن نصيحة مفيدة ، والذي يريد كل طرف فيه أن يؤكد وجهة نظره الشخصية ليس إلا ..

بيتر : لو سمحت أيها الملك .. فإنني بإدراكي المتواضع لا أريد أن تجرّنا التخمينات الخاطئة إلى الكارثة ..

الملك : قل يا بيتر .. قل ..

بيتر : يتحتم علينا أن نعرف أولاً كيف يفكر صلاح الدين ، وما الذي يريده على وجه التحديد ..

الملك : (يعود إليه نفاد الصبر) وبعدئذ ؟

بيتر : بعدئذ يمكن أن نحدد موقفنا في ضوء معطيات محددة .. لا أن نتحرك على غير هدى ..

الأمير روبير : يا بيتر .. أيها القائد المتردّد الذي يحاصره الوسواس .. إذا افترضنا أن صلاح الدين سيتحرك فعلاً لكي يضع حطين خلف ظهره ، وهذا مجرد تخمين تتخيله أنت ، فإن تحرّكه هذا سيمنحنا فرصة جيدة لا أظن أنها قد خطرت على بالك ..

بيتر : (بعدم ارتياح) مثلاً ؟

روبير : (يدير ظهره لبيتر ويخاطب الملك بصوت أكثر انخفاضاً مشيراً بكلتا يديه) سنتمركز في المرتفعات نفسها .. قرون حطين .. وسيصيرون تحتنا .. تحتنا تماماً .. وسترى يا بيتر كيف أنهم بمجرد انطلاق الرشقات الأولى من النبال سيضطربون .. بعدها يمكن أن نتصور حركة الانقضاض التي ستعطيهم درساً لن ينسوه ..

الملك : (يضع يده على كتف الأمير) مقنعة وجهة نظرك يا روبير .. إنني طالما وثقت برؤيتك للأمور .. ثلاثون سنة وأنت تقاتل .. لقد تعلمت كثيراً ..

روبير : (ينحني) تحت مظلتك أيها الملك يمكن لأمرائك أن يزدادوا عطاءً وتألقاً ..

الملك : (لبيتر) وأنت أيها الشيخ ماذا تقول ؟

بيتر : (بتردّد) أخشى أن يكون رأيي مختلفاً تماماً !

الملك : قل .. وبسرعة .. فإن الوقت يسرقنا ..

بيتر : في هذه الحالة .. سنختار نحن أن نضع أنفسنا في المصيدة ..

الملك : (بشيء من عدم الارتياح) كيف ؟

روبير : دعني أيها الملك لكي أجيبه.

الملك : كلا .. فإنني أريد أن أسمع ما عنده ..

بيتر : سنمنحه الفرصة لكي يبدأ المعركة بالتوقيت الذي يريده هو ، وبالصيغة التي يختارها .. إنه خطأ قاتل أيها الملك أن تعطي خصمك هذين السلاحين .. أضف إليهما الماء !

الملك : كيف ؟

بيتر : سيفرض علينا حصاراً قاسياً بحكم طبيعة الأرض .. سيعزلنا ويحجب عنا إمدادات الماء .. بعدها يختار اللحظة التي يضرب فيها ..

روبير : ها أنت ذا تنساق وراء أوهامك بأكثر مما يجب ، ولا أظنك تجهل أن اختراق المرتفعات التي سنتمركز فيها أمر يكاد يكون مستحيلاً .. كما

أنه سيكلّفهم كثيراً .. كثيراً جداً .. أما انحدارنا إليهم ، في اللحظة التي نختارها نحن ، لا هم .. فسيكون يسيراً ..

الملك : (بعد لحظة تأمل) وجهة نظرك يا روبير جيدة ، وهي تنطوي على مبرراتها الميدانية المقنعة .. على أية حال فإنني سأتخذ قراري بعد قليل .. وأنت يا بيتر عليك أن تنفذ .. ان الجدل الطويل لا يأتي بطائل ، والوقت يسرقنا أيها السادة ، وعلينا أن نتهيأ لساعة الحسم التي ستعيد ترتيب مصائرنا .. هيا ..

– المشهد الحادي والعشرون –

تعرض مقاطع من معركة حطين سينمائياً وبشكل مباشر في حالة الإخراج السينمائي أو التلفزيوني ، أما في حالة الإخراج المسرحي فيتوافق العرض على شاشة معدّة في خلفية المسرح مع حديث الراوي.

الراوي : كان يوم حطين يوماً ثقيلاً .. تفانى فيه الطرفان واستحر القتال ، كلاهما كان موقناً أنها معركة حياة أو موت وأن الهزيمة فيها ليست كالهزائم والنصر ليس كالانتصارات .. اختار الفرنجة فيها أن يتحصنوا في مرتفعات حطين عند سفح جبل طبرية المشرف على السهل يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة للهجرة ..

علـــى أمـــل أن يجـــرّوا المســـلمين إلـــيهم ثـــم يكـــون الانقضـــاض المدمّر .. لكنهم بوصولهم إلى المرتفعات كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك واشتد بهم العطش .. وكان اليوم شديد الحرارة راكد الهواء .. فكان الذي حدث غير الذي رسموا له وتوقعوه .. وتلك مشيئة الله .. يبدو أنهم وضعوا أنفسهم في مصيدة من نوع ما .. مصيدة عرف الناصر صلاح الدين كيف يغريهم بها ويسوقهم إليها .. وكيف يضيق من خلالها الخناق عليهم .. وقضوا ليلتهم تلك يئنون من العطش والإنهاك وهم يسمعون أصوات المسلمين في سهل حطين وتكبيراتهم التي راحت على مدى الليل كله تشق أجواز الفضاء .. بعض الفرنجة دفعهم العطش إلى التسرّب ليلاً لمحاولة الوصول إلى الماء ، ولكن المسلمين وقفوا لهم بالمرصاد وقضوا عليهم قبل أن يصلوا إلى غرضهم .. وأصدر الناصر أوامره بإشعال النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو سفوح الهضبة ، وكانت الريح على الفرنجة فحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والدخان وحر القتال. وعندما أشرقت شمس اليوم التالي وجد الفرنجة أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم، وبذلك بدأ هجوم المسلمين في ظروف هي أسوأ ما تكون بالنسبة للفرنجة. واستمات المسلمون في القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء فتعذّر على هؤلاء الصمود طويلاً وهم على تلك الدرجة من الإنهاك والعطش ، فأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم القتل والأسر والجراح .. أما بقية الفرنجة فقد آووا إلى جبل حطين ليعصمهم من البلاء ، فأحاط المسلمون بالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل وهم يتراجعون نحو أعلى الجبل في اتجاه قرون حطين ، وفي تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع من يديه صليب الصلبوت فأستولى عليه المسلمون وكان ذلك من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك .. وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو القمة والفرنجة يتراجعون والقتل والأسر يعملان في فرسانهم حتى يفي ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان فقبض عليهم المسلمون جميعاً وهم يتساقطون لا يستطيعون حراكاً بسبب الخوف والإنهاك ..

– المشهد الثاني والعشرون –

حطين بعد انتهاء المعركة مباشرة .. خيمة صلاح الدين تحيط بها خيام معسكره على امتداد البصر .. ويرى مئات الأسرى يساقون إلى خيام خصصت لهم ..

صلاح الدين : (عند الباحة المفضية إلى خيمته يخر ساجداً ومعه قادته وجنده كافة .. ينهض وهو يهتف بصوت عال) الله أكبر.

(ترد عليه أصوات القادة والجند وهي تشق أجواز الفضاء : الله أكبر .. الله أكبر) ..

تقي الدين عمر : (يحتضن صلاح الدين ويقبله) هنيئاً لك يا عماه ..

صلاح الدين : (وهو يمسح التراب عن جبهته) هنئوا أنفسكم أولاً فما أنا إلا واحد منكم .. ثم أنك يا تقي الدين عرفت كيف تقود القلب بنجاح مدهش ..

تقي الدين : ولكنك عرفت كيف تزرع وها أنت ذا تقطف الثمار ..

صلاح الدين : لست الذي زرع يا تقي الدين ولست الذي أنضج الثمار .. ليس ثمة غيره من يزرع وينضج .. ونجيء نحن لكي نقطف باسمه .. ذلك هو الله الذي لا إله إلا هو ..

تقي الدين : الحمد لله ..

صلاح الدين : (يسهم قليلاً) كم كنت أتمنى أن يكون العماد الأصفهاني معنا اللحظة.

صارم الدين النجمي : (أمير عسكر دمشق وهو يتدافع للاقتراب من صلاح الدين) حاولت إقناعه ولكن المرض خانه .. هاجمه على حين غفلة فأقعده عما كان يحلم به ..

صلاح الدين : (مبتسماً) تمنيت أن يراها بأم عينيه فلا يزيد أو ينقص شيئاً ..

صارم الدين : ستصله التفاصيل بإذن الله .. فهو يوم ليس كالأيام ..

صلاح الدين : لم نفعل شيئاً بعد .. وأمامنا الكثير الذي ينتظرنا.

صارم الدين : نحن لهم أيها السلطان.

صلاح الدين : قل إن شاء الله (يلتفت إلى المشطوب الهكاري الذي يقف خلفه) لقد أبليت يا سيف الدين اليوم بلاءً حسناً ..

المشطوب : قل فبفضل الله فليفرحوا .. فالحمد لله وحده ..

صلاح الدين : (وهو يربت على كتفه) بارك الله فيك ..

المشطوب : لست وحدي على أية حال.

صلاح الدين : (مكرراً) بارك الله فيك ..

الأفضل : ها قد انفتح الطريق أمامك إلى القدس يا أبتاه ..

صلاح الدين : انك تستعجل الأمور بأكثر مما يجب أيها الصبي .. ولكن ليس ذنبك إنما هي فورة الشباب ..

المشطوب : لقد كسرت ظهرهم أيها السلطان وأصبحت القدس مكشوفة تماماً .. وها قد حانت ساعة الخلاص ..

صلاح الدين : ها هو ذا رجل آخر من أصحابي يستبق الأمور .. معذوراً هو الآخر بحماسه الذي يتجاوز حدود المعقول .. ولكن القتال يا سيف الدين ليس كالإعداد له !

تقي الدين : رغم ذلك فإنني أتساءل : ما الذي يمنعنا من الذهاب إلى هدفنا مباشرة ؟

صلاح الدين : هناك أيها الملك أهداف لا يصلح معها أن تذهب إليها على خط مستقيم.

تقي الدين : لماذا ؟ وليس ثمة ما يصدّنا عن المضي في الطريق ؟

صلاح الدين : (مقاطعاً) قد يسوقك الذهاب المباشر إلى الانكسار .. أو على الأقل سيعرقل اندفاعك ويمتص زخمك وحينذاك ستكون خسارتك كبيرة .. الزمن يا تقي الدين هو بؤرة الاستقطاب عقب معارك ضارية كهذه ، وعلينا أن نحسن توظيفه وإلا ضاع كل شيء ..

تقي الدين : اعتقد أن من حقي أن أتساءل عما يعتزمه السلطان لكي نعد له العدة ..

صلاح الدين : سيجيء في وقته المناسب إن شاء الله ، وستتاح لك الفرصة لكي تبلو فيه بلاءك المأمول .. ولكن ليس قبل أن أحسم مشكلة الأسرى والمهزومين (كمن ينتبه) ولكن ماذا عن أرناط صاحب الكرك ؟

مظفر الدين كوكبوري: لقد تم إلقاء القبض عليه وهو يحاول الفرار ..

صلاح الدين : كنت أتصوّره في عداد القتلى ..

مظفر الدين : إنه محتجز في الخيمة المجاورة حتى ترى فيه رأيك.

صلاح الدين : سأرسل في طلبه بعد قليل (يرتل مع نفسه) : **{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ{١٤} وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{١٥}** (التوبة ، الآية ١٤-١٥) ..

- المشهد الثالث والعشرون -

داخل خيمة صلاح الدين حيث يتصدر المكان ، وعلى يمينه عدد من رجاله وإلى شماله جلس الملك جاي لوزجنان وجيرار دي ريد فورت مقدم الراوية وعدد من كبار أمراء الفرنجة وباروناتهم .. وعند أسفل الخيمة يقف أحد المترجمين .. لحظات ويدخل المشطوب الهكاري وهو يسوق أمامه أرناط مكبلاً بالأغلال ..

صلاح الدين : (وهو يعاينه بهدوء) فكوا أغلاله.

(يتقدم اثنان من الحرس فينفذان أمر السلطان يجلس منهكاً إلى جوار الملك) ..

ها قد التقينا يا أرناط !

أرناط : (ينكس رأسه ولا يقول شيئاً) ..

الملك جاي : العطش يكاد يهلكني أيها السلطان .. أريد ماءً.

صلاح الدين : (لحرسه) ائتوني بماء مثلج.

(يجيئون به فيقدمه للملك وهو يبتسم)

هنيئاً مريئاً أيها الملك ..

الملك : (يشرب القدح بنهم ويمسح فمه بكم ردائه ثم ما يلبث أن يقدم بقية الماء لأرناط الذي ينظر إليه بتوّسل) خذ ..

صلاح الدين : (يغضب فجأة ويصرخ) إن هذا الملعون لن يشرب الماء بإذني فينالـه أماني ..

الملك : (بتوّسل) ولكنها الرحمة أيها السلطان ..

صلاح الدين : (لأرناط غير ملتفت للملك) كنت متحرقاً على ما يبدو لهذا اللقاء.

أرناط : (ينظر إليه متسائلاً لا يقول شيئاً) ..

صلاح الدين : لقد خرقتَ هدنتكم معي فأحرجتَ الملك وأعطيتني الإشارة لبدء العمل .. لقد حلفَت كثيراً ونكثتَ كثيراً ..

أرناط : قد جرت بذلك عادة الملوك ..

صلاح الدين : هذا صحيح .. لقد اعتدناه منكم دائماً .. يبدو أنه في تاريخكم على الأقل هو القاعدة وغيره الاستثناء .. لا يهمني إن كان هذا قدركم أم لعنة حلّت بكم ، ولكنني أسألك يا أرناط كيف أبحت لنفسك مهاجمة قافلة من الحجاج المسالمين وأسر رجالها وسبي نسائها ونهب أموالها، وهي تمر قريباً من الكرك مطمئنة إلى الهدنة وإلى أنها ما جاءت لكي تقاتل وإنما لكي تحج إلى بيت الله .. ومع ذلك لم تكتف بهذا كله ، بل رحت تسوم الأسرى الذين اعتقلتهم في الكرك سوء العذاب ؟

أرناط : في حالات الصراع بين خصمين قد يبيح الإنسان لنفسه تصرفاً كهذا..

صلاح الدين : لم نكن في حالة حرب .. كنّا في هدنة .. وكنتَ أحد الذين وقعوا عليها إلى جانب الملك ، في أعقاب محاولتك الخائبة لاستباحة الحرمين الشريفين .. ثم انهم كانوا مسالمين ما جاءوا لكي يقتلوا أحداً..

أرناط : لقد فعلها المسلمون قبلي مع حجاج بيت المقدس ..

صلاح الدين : ذلك قولكم بأفواهكم فليس ثمة عندنا ما يؤكده ..

أرناط : إنه تقليد صنعه غيري فلماذا أحاسب على جريرة لم تقترفها يداي ؟

صلاح الدين : (يضحك) يداك ؟ أنت الذي قمت بمهاجمتهم يا أرناط فلا تحاول أن تلوي عنق الحقائق .. بعدها رحت تتباهى بما صنعته يداك ، والجريمة كما لا يخفى عليك تحال على فاعلها .. بغض النظر عمن صنع تقاليدها .. فتلك مسألة أخرى ..

أرناط : إذا أقررت بذنبي فهل أحظى بعفوك أيها السلطان ؟

صلاح الدين : لا والله يا أرناط !!

أرناط : (بتوسل) لماذا ؟ وأنت الذي وسع عفوك الأصدقاء والخصوم على السواء ؟

صلاح الدين : حالتك تختلف .. تختلف تماماً .. إنك لص باعتراف الملك جاي نفسه، وقد أبحتُ دمك منذ محاولتك انتهاك الحرمين الشريفين ..

أرناط : مع ذلك أيها السلطان .. لقد سمحت لي بأن أروي ظمأي ، وهذا عندكم إشارة الأمان .. وعهده ..

صلاح الدين : لم أعطك الماء بيدي لكي تنال أماني .. لقد أقسمت يا أرناط ، والأمر قضي منذ زمن بعيد فلن أخون الله وأناقض نفسي ..

أرناط : (يزداد وجهه شحوباً وتنتابه رعدة الخوف) قد أفيدك أيها السلطان .. يمكنك .. أن .. تضعني .. في خدمتك .. وسأعرف كيف أقنع أصحابي بأن يكفّوا عن مقاومتك ..

صلاح الدين : لست أنت الذي تقنعهم .. ولكنه منطق القوة .. قانونها الذي جئتم به **{ ... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }**(البقرة ، الآية ١٩٤) .. ثم إنك لم تعد شيئاً لكي تنفذّ عملاً ذا قيمة .. في ظني أنك سقطت في أعينهم هم أيضاً (يشير إلى الملك والأمراء) فلم تعد شيئاً يستحق الاحترام.

(ينهض إليه ويستل سيفه بغضب ثم يطيح برأسه) ..

العادل : (للأفضل ابن أخيه) لا زلت أذكر ملامح السلطان لحظة تلقيه النبأ باستباحة قافلة الحجاج .. كأن جبروت الزمن تمركز في لحظة واحدة قدر خلالها على أن يحفر في وجهه الأخاديد .. حزن العالم كله اكتسح الرضا والوضاءة ..

الأفضل : لم ينم ليلته تلك لحظة واحدة .. لكنه في اليوم التالي عرف كيف يبعد حزنه إلى طبقة غائرة في نفسه منتظراً وعد الله !

– المشهد الرابع والعشرون –

تبدو خارطة فلسطين والشام حيث تنطلق قوات الناصر صلاح الدين في أكثر من اتجاه لتحرير مدنها ومواقعها من قبضة الغزاة ..

الراوي : انطلق الناصر صلاح الدين على رأس قواته في واحدة من أسرع عمليات استثمار الفوز في التاريخ ، وراحت المواقع والقلاع والحصون والمدن التي أحكم الفرنجة قبضتهم عليها ، فيما يوشك أن يصبر قرناً من الزمان ، تتساقط بين يديه الواحدة تلو الأخرى .. طبرية .. عكا .. الناصرة .. قيسارية .. حيفا .. صفورية .. الشقيف .. الطور .. حصن مجدل .. يافا .. سبسطية .. تبنين .. صرفند .. صيدا .. بيروت .. جبيل .. الرملة .. نابلس .. الداروم .. غزة .. النطرون .. بيت جبريل .. عسقلان .. لم يمض في انطلاقه على خط مستقيم لكي يحرر البلاد والعباد .. كان يدرك تماماً أنه لا يصارع المكان وحده .. فهنالك – أيضاً – الزمن .. وهو عامل حاسم في تشكيل المصير .. لذا كان يختار الحلقات الأضعف فيضربها بغض النظر عن موقعها في رحلته الكبرى فما تلبث الحلقات الأقوى أن تتفكك هي الأخرى .. لم يغرّه انتصاره الكبير في حطين فيدفعه إلى حافات التهور الذي لا يخطط ويرسم ويحسب ويضع الضمانات .. كان هدفه الأساس الاستيلاء على المدن الساحلية ليحرم الفرنجة من قواعدهم على البحر والتي تربطهم بالخارج وبخاصة أوربا .. فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام وفلسطين ، وبعد ذلك تتساقط في يده المعاقل والمدن الأخرى .. هذا إلى أن استيلاءه على المدن الساحلية سيمكنه من تحقيق الاتصال السريع عن طريق البحر بين شطري مملكته في مصر والشام.

فـي أسـابيع معـدودات طـوى الناصـر صـلاح الـدين جـل المواقـع الفرنجية وأعادها إلى أصحابها .. ولم يترك لهم سوى مساحة ضيقة من الأرض لا يتجاوز طولها عشرات الفراسخ وعمقها فراسخ أخرى .. كـان فـي خطتـه أن يرجـع إليهـا كـرة أخـرى ولكـن لـيس قبـل أن يصفي حسابه مع المدينة العزيزة القدس ، ويدخلها محرّراً .. ها هو الآن يعزلها تماماً ولم يبق سوى أن يتجه إليها لتحقيق حلمه الغالي ..

- المشهد الخامس والعشرون -

صلاح الدين يجتاز دروب القدس يحيط به رجاله من الأمراء والقادة .. على مسافة قريبة تطل القلعة وقبة الصخرة والمسجد الأقصى .. بينما تزدحم جماهير الجند والأهالي على جانبي الطريق تهتف وتحيي ملوحة بأيديها.

صلاح الدين : (على جواده مطأطئاً رأسه) الحمد لله !

الجند والجماهير : (معاً وبهتاف كقصف الرعد ينطلق بدفقات متصاعدة بين دقيقة وأخرى) الله أكبر .. الله أكبر ..

صلاح الدين : (يتوقف لحظات ثم ينزلق عن ظهر جواده ويخر ساجداً لله ، ومن ورائه وعن يمينه وشماله الأمراء والقادة والجند .. ينهض قائماً فينهضون وراءه .. يمسح آثار التراب عن جبهته بظاهر كفه ، ويخاطب العماد الكاتب الذي يقف بجواره) لكل أجل كتاب يا عماد الدين !

العماد : إن وعد الله حق أيها السلطان !

صلاح الدين : ها أنت ذا ازاء الحدث نفسه وهو يتشكّل قبالتك فأكتب أيها الرجل فليس ثمة ما يصد رؤيتك وهي تنفتح على الآفاق ..

العماد : ليس اللحظة على أية حال ، والحدث بدأ يتشكل منذ زمن بعيد بإرادة الله وأيدي السلسلة المباركة من الرجال : عماد الدين زنكي ونور الدين محمود .. ثم ها أنت ذا أيها السلطان تواصل الطريق .. عندها يصير الوصول إلى الأهداف الصعبة ممكناً .. بل مؤكداً ..

صلاح الدين : (وهو يفتح كلتا يديه مشيراً إلى أمراء الأقاليم والقادة عن يمينه وشماله) وهؤلاء يا عماد الدين .. لن أنسى ما حييت صبرهم وإخلاصهم العميق ..

العماد : ذلك أنك عرفت كيف تجعلهم إخوانك ورفاقك في السراء والضراء ..

صلاح الدين : الحمد لله ..

العماد : (مشيراً إلى المسجد) لكم أتمنى أن ألقي بنفسي خطبة الجمعة الأولى بعد أيام قلائل .. وأعذرني أيها السلطان إذا كنت قد تجاوزت موقعي .. ولكنه سيكون شرف عظيم لي ..

صلاح الدين : (ينظر بدهشة إلى المسجد ويشرد قليلاً) القاضي محي الدين بن زكي سيلقيها ، فأنت قادم من سفر بعيد ثم إن المرض لا يزال يلاحقك ..

العماد : بعد تسعين عاماً يرتفع الآذان كرة أخرى ويجتمع المسلمون يوم الجمعة لسماع الخطبة وأداء الصلاة .. أية منة من الله علينا أيها السلطان ؟

صلاح الدين : (ينتبه فجأة) أين العادل ؟

العادل : (يدفع فرسه للاقتراب أكثر) ها أنا ذا أيها السلطان.

صلاح الدين : ماذا عن الفرنجة ونصارى المدينة ؟

العادل : الفرنجة ينتظرون كلمتك .. ونصارى القدس يميلون للبقاء في بلدهم العتيق .. كثيرون منهم غمرهم الفرح بالخلاص من حكم الطاغوت .. فئة ثالثة أيها السلطان يتملكها الرعب وهي الآن تتدافع عند بوابات القدس تبحث عن سبيل للفرار ..

صلاح الدين : (يرفع صوته قليلاً) أرسل إليهم من يؤمنهم فليس ثمة بعد اليوم من خوف .. قل لهم إننا جئنا لكي نفتح ونحرر ونستعيد حقاً مغتصباً لا لكي نخيف وننتقم .. قل لهم أيضاً إنني سأحسم أمرهم اليوم ، ولن أجعلهم يتعذّبون طويلاً بانتظار كلمة الفصل .. إنهم جميعاً إذا أردت الحق أيها الملك ضحايا بشكل من الأشكال .. لقد سقط الطاغوت الذي أرغمهم على فعل شيء قد لا يكونون هم أنفسهم مقتنعين به .. وها قد آن الأوان لتحريرهم هم أيضاً ..

(يغادر العادل المكان)

المشطوب الهكاري : (وهو يدفع فرسه باتجاه صلاح الدين) ولكن أيها السلطان !

صلاح الدين : (يضع يده على فمه) صه .. فإنني أعرف ما ستقول.

المشطوب : تذّكر فقط ما الذي فعلوه بأهلينا قبل تسعين عاماً !

صلاح الدين : أعرفه جيداً يا سيف الدين فلا داعي لأن يذكرني أحد به .. كان يتشّكل قبالتي قبل لحظات وجاهدت للفكاك منه .. فالحمد لله ..

المشطوب : آلاف المسلمين أيها السلطان بينهم النساء والشيوخ والمرضى والأطفال.

صلاح الدين : (يشرد كرة أخرى وتتعاقب على ملامحه ظلال الحزن والفرح) لن نكون مثلهم .. لقد جاءوا غزاة تعشش الكراهية في حناياهم وجئنا فاتحين .. أتعرف يا سيف الدين ؟ إن الفتح هو الحرية التي وعد الله ورسوله الإنسان بها في هذا العالم ، وكانت السماحة والمحبة دائماً الخطوات الأولى نحوها .. فلن أخالف عما علمني إياه رسول الله ..

المشطوب : ولكن المعتدي له حساب آخر .. لقد جعلوا قوائم خيولهم تغوص في برك من دماء المسلمين.

صلاح الدين : تلك أمة قد خلت وهذه أجيال أخرى من الناس ، ولن أضعهم جميعاً على صعيد واحد .. ذلك حكم الطاغوت .. أما حكم الله فلا .. **{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ{١٢٦} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ{١٢٧} إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ{١٢٨}** (النحل ، الآية ١٢٦-١٢٨).

– المشهد السادس والعشرون –

الراوي : قضي الأمر وأصدر السلطان أمره بالعفو عن الجميع .. سمح لمن أراد أن يبقى ولمن شاء أن يرحل ، شريطة أن يدفع فداءه جعالة متواضعة من المال قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، أما الفقراء والمعدمون فلم يأخذ منهم شيئاً ..

كثيرون آثروا البقاء .. وآخرون اعتزموا الرحيل .. كانت أبواب القدس مشرعة وليس ثمة ما يسوقهم للهلع .. ولكنها جبلّة بني آدم .. فطروا على العجلة والخوف .. ومن يدري ، فلعلهم ما صدّقوا أن السلطان عفا عنهم ، وأن السكين قد تلوح لهم بين لحظة وأخرى .. والناس عبيد ما ألفوا .. وهذا الذي فعله السلطان لم يكن في حسابهم ولا تصوّرهم أبداً ..

امرأة من الفرنجة ضاعت ابنتها وهي تتدافع مع المتدافعين .. جاءت إلى السلطان تبكي .. أراد حراسه أن يمنعوها من الوصول إليه ..

صلاح الدين : (بانفعال) دعوها ..

المرأة : (تقترب منه وهي تلهث .. تحاول أن تتكلم فيخونها النطق فتنفجر باكية).

صلاح الدين : (بترّفق) ما بك أيتها المرأة ؟ قولي ولا تخشي شيئاً ..

المرأة : (وهي تطمئن لملامحه) ابنتي .. أيها .. السلطان !

صلاح الدين : ما بها ؟

المرأة : أفلتت من بين يدي وأنا أهم بمغادرة المدينة .. أخشى أن تكون قد ضاعت .. إنها ما تزال طفلة .. وربما (ما تلبث أن يخونها النطق فتتلجلج).

صلاح الدين : اطمئني أيتها المرأة فسأحاول أن أردّ ابنتك إليك إن شاء الله ..

الراوي : سألها السلطان عن ملامحها وأبقاها في خيمة قريبة .. وأمر بعض أصحابه أن يرسلوا في طلب من يسهر عليها وبعث آخرين يبحثون عن ابنتها .. ما لبثوا بعد ساعات أن جاءوا بها ..

صلاح الدين : (للمرأة) أهذه هي ؟

المرأة : (وقد أفقدها الفرح صوابها تقفز لكي تحتضن ابنتها ثم تتركها لحظات لتقبيل يد السلطان فيسحبها بهدوء).

صلاح الدين : لا يقتضي الأمر هذا كله يا امرأة .. إننا مسؤولون أمام الله ، حتى عن البهائم والعجماوات .. فكيف بالأطفال ؟ دقات قلبك أيتها الأم كانت تحدّثني وليست كلماتك .. لقد سمعتها جيداً فانتابني الحزن .. ولكن ها قد عادت إليك ابنتك فاحمدي الله ..

المرأة : (وهي تحتضن ابنتها وتنظر بامتنان للسلطان وتهم بمغادرة المكان) الحمد لله !

الراوي : لحظت أكثر من تساؤل على وجوه القادة والأمراء والكتاب .. كنت أعرف هذا جيداً وأخمنّه .. إن مجرد مقارنة عابرة بين ما فعله الغزاة لحظة دخولهم القدس وما يفعله السلطان تثير ألف سؤال وسؤال .. العماد الأصفهاني انتحى جانباً منعزلاً وراح يكتب .. ما الذي كان يريد أن يقول ؟ لا أدري .. هل كان يكتفي بتسجيل ما يقع قبالة عينيه؟ أم أنه كان يعلّق ، ويعترض ، ويتساءل هو الآخر ؟ .. المشطوب الهكاري كان أكثرهم قلقاً ، وكانت حركاته العصبية تنبئ عن ذلك بوضوح .. اقترب كرة أخرى من السلطان.

المشطوب : لو سمحت لي !

صلاح الدين : (يلمحه فيبتسم) ها أنت ذا قد عدت أيها المقاتل العنيد !

المشطوب : سأظل أرجع إليك لأن ألف سؤال يحتبس في أعماقي ، كلها تبحث عن الجواب الذي يدعني ارتاح ..

صلاح الدين : (بالابتسامة نفسها) أعرف مقدماً ما الذي تريد أن تقول .. أسئلتك جميعاً مكشوفة أمامي ، وسأقول لك ما قلته من قبل : إنك رجل ميدان يا سيف الدين فأدخّر طاقتك له وأمامنا بعد درب طويل ينتظر رجاله .. وما سوى ذلك دعه للآخرين فهم اقدر على التعامل معه ..

المشطوب : (يتراجع وهو يكظم غيظه بصعوبة) لا بأس أيها السلطان ..

الراوي : أنوء بذاكرتي التي لا تغفل ولا يتناوشها النسيان .. اتعاطف في سرّي مع المشطوب وأنا أتذّكر المذبحة التي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ .. أتذّكر برك الدماء التي كانت قوائم خيول المغيرين تغوص فيها وهي تمضي إلى هدفها لتولغ أكثر في دم المسالمين .. وها هو الآن السلطان المنتصر يرغمنا على أن نطوي هذا كله .. هذا الحزن العميق .. وهذه الرغبة المتحفزّة للثأر الموغل في الشرايين ، وينصرف للبحث عن طفلة ضائعة لامرأة فرنجية كان جدها قد حصد يوما عشرات الأطفال المسلمين .. فلا حول ولا قوة إلا بالله !

– المشهد السابع والعشرون –

كليرمونت .. جنوبي فرنسا .. أحد قصور الملك الفرنسي فيليب أغسطس .. يتصدر المجلس وحوله رجاله .. يقف قبالته جوسياس رئيس أساقفة صور.

جوسياس : (كما لو أنه ينهي حديثاً طويلاً) هذا هو الذي جرى على وجه التحديد يا جلالة الملك .. وانني أنقله إليك بتفاصيله لكي ترى رأيك ..

الملك : ورأيك أنت أيها الأسقف ؟

جوسياس : (بمزيد من الأدب) لن أسبق رأي جلالتكم .. فأعذرني !

الملك : (وهو يميل على رجاله ذات اليمين وذات الشمال لمشاورتهم) إنك تقول أن المسلمين دخلوا بيت المقدس .. طردوا أصحابنا منها بعبارة أخرى ..

جوسياس : نعم ..

الملك : وأنهم أبادوا الأهل والولد.

جوسياس : بكل تأكيد.

الملك : (بغضب) ولكنهم مسالمون !

جوسياس : لا أظن أن مما يخفى على جلالتكم أن سيف المسلم وهو يتعامل معنا لا يفرق بين مقاتل ومسالم .. بين من يحمل سلاحاً والأعزل من السلاح ..

الملك : ليس لذلك غير جواب واحد .. أن تتداعى أوربا لحملة مقدسة أخرى .. (ينتبه) أخرج أيها الأسقف ولسوف أبعث في طلبك فيما بعد.

(يغادر جوسياس المكان)

ريمون الليوني إذا أذنت لي أيها الملك ..

(مستشار الملك) :

الملك : قل يا ريمون فما جئت بك إلا لأستمع إلى رأيك.

ريمون : لقد تعبتْ فرنسا كثيراً .. الحملتان الأولى والثانية أكلتا من رجالها عدداً كبيراً .. لسنا مستعدّين لآلاف أخرى من الأرامل والأيتام .. إن شبابنا يضيعون أيها الملك !

الملك : لابد مما ليس منه بد يا ريمون .. فها أنت ذا ترى بأم عينيك .. كل أمر يمكن أن تتساهل فيه .. أن نغض الطرف عنه .. إلا بيت المقدس !

ريمون : (مستمراً) في الحملتين السابقتين وقع العبء الأكبر علينا .. لقد قدمنا ما فيه الكفاية .. إن المسلمين لا يزالون يسمّون المقاتلين الأوربيين جميعاً بالفرنجة ، وهذا يحمل دلالته ولا ريب .. من جهتنا فإننا دفعنا الضريبة المقدّسة .. ولقد كانت فادحة حقاً ..

الملك : والحل يا ريمون ؟

ريمون : (مشدداً على مخارج الأحرف) هناك شعوب .. وممالك .. ودول .. وجيوش أوربية كثيرة غير الفرنجة .. هناك مقاتلون جيدّون من ممالك شتى ..

الملك : ولكنهم شاركوا في الحرب المقدسة هم أيضاً ..

ريمون : ليس بالصيغة التي تتناسب وقدراتهم .. إنها لمعادلة خاطئة .. أيها الملك .. وقد تشكلت على حسابنا دائماً .. والآن ، فإن طردنا من بيت المقدس فرصة جيدة لإعادة ترتيب الأمور .. ورب ضارة نافعة !

الملك : ماذا تقصد أيها الشيخ الداهية الذي أعيتني مناقشاته ولجاجاته ..

ريمون : قد يكون بمثابة الشوكة التي تخز أوربا كلها .. أباطرتها وملوكها وأمراءها وفرسانها وشعوبها .. إذا أحسوا بقوة الألم .. بأن بيت المقدس نفسه قد ضاع من أيديهم ، ربما إلى الأبد ، وبأن بقايا الملك الصليبي في المشرق تتعرّض للانهيار والضياع هي الأخرى .. فإن غيرتهم قد تقودهم لمشاركة حقيقية .. وحينذاك ستدفع فرنسا حصتها العادلة وبمستوى الميزان ..

الملك : (يقهقه ويصفق بيديه) يا لك من ثعلب ماكر أيها العجوز ..

ريمون : (يضحك هو الآخر) إذا رأيتني قد شخت أكثر مما يجب فأطلق سراحي .. هناك كثيرون غيري ..

الملك : يا رجل .. هل تتصور أن بمقدوري الاستغناء عنك ؟ ولكن حذار أن يدفعك تشبّثي بك إلى الغرور ، وأعلم أنني لا أطيق هذا النموذج من الناس ..

ريمون : (يستعيد جدّيته) لقد تخطيتُ حافات الشيخوخة منذ زمن بعيد أيها الملك .. وفي محطات العمر الأخيرة يصير الإنسان عصيّاً على الإغواء ..

الملك : وماذا ستفعل ؟

ريمون : (يفكر قليلاً) نبدأ بإرسال الأسقف جوسياس لكي يقف بنفسه قبالة ريتشارد ملك إنكلترا وفردريك إمبراطور ألمانيا ويحكي لكل منهما عما شهدها هناك .. سيشعل في ضلوعهما النار .. أو على الأقل سيلهب مشاعر الناس ، وحينذاك سيخاف الملك والإمبراطور على عرشيهما من امتداد الحريق .. سيكونان على استعداد تام لقبول الاقتراح الفرنسي !

الملك : أي اقتراح هذا ؟

ريمون : سنبعث بسفرائنا إلى البلدين نطلب اعداد جيشيهما للحرب المقدسة .. للذهاب إلى الشرق وإنقاذ قبر السيد المسيح .. وبما أن الجيش الفرنسي سيقوده ، جلالة الملك بنفسه هذه المرة ، فليس من المعقول

ألاّ يتولى الملك الإنكليزي والإمبراطور الألماني قيادة جيشيهما كذلك .. إنهما يخشيان النقمة على أية حال .. إن لم نفترض ابتداء أنهما مقتنعان بالمهمة أشد الاقتناع ..

الملك : (وهو يهم بالنهوض) يا لك من ثعلب ماكر أيها العجوز .. وتريدني أن أطلق سراحك ؟

– المشهد الثامن والعشرون –

الراوي : تناقل الناس بدهشة ما فعله صلاح الدين .. وزاد من دهشتهم ان يروا هرقل بطرق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة ، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة التي استولى عليها دون أن يبالي بفقراء الفرنجة الذين لم يجدوا ثمن فدائهم ، فأطلقهم صلاح الدين دون فداء وزاد على ذلك بأن منحهم مساعدات من ماله الخاص ، ورفض ان يتعرض لأموال البطرق وقال : لا أغدر به ! وبالدهشة نفسها تحدث الناس عن معاملة السلطان لنساء الفرنجة حيث سمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن واتباعهن .. كانت زوجة الملك السابق جاي لوزجنان موجودة في بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر في نابلس فأذن لها ، بل انه استجاب لطلب الأميرة أتينت أرملة الشرّير أرناط بالخروج وإطلاق سراح ابنها فلبى طلبها. ولم يكتف السلطان بهذا كله وإنما رتّب مع الفرنجة مجموعات من الحراس كي لا يتعرضوا لأي أذى أو اعتداء عبر الطريق ..

وما أن حانت الجمعة التالية للفتح وأعلن عن إقامة الخطبة والصلاة في المسجد الأقصى ، حتى تدفق إليه المسلمون من كل مكان .. رجالاً وشيوخاً ونساءً وصبياناً .. فضلاً عن حشود الأمراء والقادة والجند .. ها هي ذي خطبة الجمعة بعد تسعين عاماً من الصمت الحزين تجلجل كرة أخرى في باحة المسجد وأروقته وساحاته ، بعد أن غسلت الصخرة نفسها بعدة أحمال من ماء الورد ، وبُخرت وفُرشت ، وبعد أن استعيدت ملامح المسجد الأقصى بإزالة التشويه الذي ألحقه الفرنجة بالكثير من مرافقه ، وتنفيذ أمر السلطان باستنفاد الجهد في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه .. من كل مكان تدفق الناس إلى المسجد الأقصى .. من القرى والمدن القريبة والبعيدة .. من الشوارع والحارات والأزقة والأسواق المجاورة .. أغلبهم من الجند أنفسهم الذين جاءوا مع الناصر صلاح الدين .. المقدسيون كانوا قد تناقصوا بشكل ملحوظ .. أكلتهم المجزرة .. فما عادوا يشكلون حضوراً ملحوظاً في مدينتهم التي انتظرت محررها طويلاً ..

(يبدو المسجد الأقصى من الداخل وقد أكتظ بالمصلين ولا يزال يتلقى وجبات أخرى ، بينما يرى السلطان وهو يؤدي تحية المسجد بمعية عدد من الأمراء والقادة والكتاب في جانب من المسجد .. يسمع صوت المؤذّن وهو يتصادى في جنبات المكان .. وما يلبث القاضي محيي الدين بن زكي أن يرتقي المنبر بهدوء ليلقي خطبته).

ابن زكي : الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومصرّف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدّر الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين .. أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها قريباً من مائة عام .. فهي موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد (عليه السلام) وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام وهي مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومهبط الوحي ، وهي البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، عيسى الذي شرّفه الله برسالته .. وهي أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان

بلاده لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجارٍ ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم .. جدّوا – أيها الناس – في حسم الداء وقطع شأفة الأعداء وتطهير بقية الأرض من الفئة التي أغضبت الله ورسوله ..

(يتباعد صوت الخطيب شيئاً فشيئاً ويظهر الراوي ثانية)

الراوي : كان يوماً مشهوداً .. امتزجت فيه دموع الحزن بالفرح ، واختلطت مشاعر الأسى بالبهجة .. كنت الحظ جموع المصلين وهم يغادرون المسجد على مكث ، كأنهم ما كانوا يريدون أن يبعدوا عنه .. رغباتهم جميعاً التقت على شيء واحد .. أن يظلّوا إلى جانب السلطان وألا يغادروا المسجد أبداً .. كانوا أشبه بمن فقد شيئاً نادراً .. عزيزاً .. ثم ها هو ذا – أخيراً – يعثر عليه .. إنه ، بغير ما تعمد منه ، يحكم قبضته عليه لئلا ينسلت من يديه ويضيع كرة أخرى .. لقد عادت القدس الضائعة إليهم .. وعاد المسجد الأقصى .. ومن يدري فلعلهم يحتاجون لأيام وأسابيع وربما شهوراً أخرى لكي يتأكدوا أنها صارت لهم وأن أحداً في العالم لن يأخذها منهم ثانية ..

للحظات تناديني الذكرى التي لا تريد أن تفارقني ، فأكافح لكي أتحرّر منها ، وأقول في نفسي : هذا يوم الفرح الكبير فلأتمّحض له ، ولن أسمح للحزن بأن يتسلل إلى شراييني كما كان يفعل دائماً .. ترى هل سيقدر لمحاولتي النجاح ؟

– المشهد التاسع والعشرون –

بالرمو في صقلية .. معسكر ملكه فرنسا وإنكلترا
حيث تنتشر الخيام ويتنقل المقاتلون هنا وهناك.

ريتشارد : (لفيليب أوغسطس ملك فرنسا وهما يقفان وعدد من قادتهما في مكان منعزل عن المعسكر) رائعة أجواء الشتاء هنا أيها الملك .. منذ زمن بعيد وأنا أحلم بالشمس ، والدفء ، وزرقة السماء ..

فيليب : ولكن الوقت يسرقنا .. فها هي ذي الأسابيع تمضي ونحن نتلقى أشعة الشمس .. والدفء .. وزرقة السماء !

ريتشارد : وما الداعي للعجلة ؟ على العكس .. إن الوقت يمضي لصالحنا ..

فيليب : (بدهشة) لصالحنا ؟ والإمبراطور فردريك يحث خطاه إلى القدس ، ويتحفز لأخذ زمام المبادرة ؟

ريتشارد : دعك من الإمبراطور .. إنه شيخ كبير ، ولا أعتقد أنه سيواصل طريقه حتى النهاية .. إن للعمر أحكاماً أيها الملك !

فيليب : مع ذلك .. ثم ما هو مبرّر استمرارنا ها هنا .. لقد بقينا ما فيه الكفاية .. ارتحنا وارتاح جنودنا .. والأولى أن نتهيأ لمواصلة الطريق ..

ريتشارد : يا عزيزي يا صاحب الجلالة .. إن هذا الرجل المقاتل .. صلاح الدين .. لابد أن يتعب .. قواته لا تستطيع مواصلة القتال إلى ما لا نهاية .. لابد أن يستنزف ، إن لم يكن اليوم فغداً .. تلك سنة الحياة ، وجنوده سيمارسون الضغط عليه شاء أم أبى ، لكي يسرّحهم ، يسمح لهم بأشهر يذهبون فيها إلى أهليهم .. حينذاك سيكون توقيتنا قاتلاً .. وعلى افتراض بقائهم ، فإننا سنجابه جيشاً أنهكه الإعياء ، وسيكون بمقدورنا نحن الذين ارتحنا طويلاً أن نطويه بسهولة ..

فيليب : ولكن ..

ريتشارد : أعرف ماذا ستقول .. إنه الإمبراطور فردريك باربا روسا أليس كذلك ؟ دعنا من هذه الجملة الاعتراضية التي لا ضرورة لها وتأمل معي كيف أننا في الحالتين سنلعب ورقة رابحة !

فيليب : ولكني أخشى أن تذهب هذه الورقة إلى جيوب أخرى !

ريتشارد : يا رجل .. واحد زائد واحداً يساوي اثنين .. اليس كذلك ؟

فيليب : لا أفهم قصدك على وجه التحديد ..

ريتشارد : (يضحك) لن يكون بمقدور الإمبراطور الشيخ أن يجابه فيليب وريتشارد دفعة واحدة .. هذا إذا قدّر له الوصول .. ان خيبته بدأت لحظة اختياره الطريق البرّي عبر أراضي خصمه الإمبراطور البيزنطي اسحق .. بعدها يتحتم عليه اختراق الأناضول .. إنه مقبرة كبيرة يا فيليب ..

فيليب : ولكنه يقود مائة ألف محارب ..

ريتشارد : لا عليك من هذا .. والمهم هو من يقودهم ؟

فيليب : أخشى يا ريتشارد أن يسرقك الدفء والشمس وزرقة السماء !

ريتشارد : في بلادي أيها الملك ، يحلم الناس بها .. أنظر إلى جنودي .. إنهم يرتشفونها كما لو أنهم يشربون كوباً من عصير الليمون ..

فيليب : (بشيء من التوتر) لست مرتاحاً على أية حال لهذا الاسترخاء الذي جاوز حدوده المعقولة.

ريتشارد : (ببرود) ليس استرخاء ولكنه ادخار للجهد ، وأنت تعلم حجم المهمة التي سنقبل عليها ..

فيليب : سمه ما شئت ما دام إن مناخكم هناك قد منحكم هذا القدر من البرود في التعامل مع الأشياء ..

ريتشارد : في لحظات الحسم فإن هذا الذي تسميه بروداً هو الذي يصنع الأعاجيب.

فيليب : (بنفاد صبر) لن أناقشك في أمر قد لا تكون مقتنعاً به .. ولكني احذّرك فقط من أن استمرارنا هنا هو في غير صالحنا على الإطلاق..

ريتشارد : وماذا تريدنا أن نفعل ؟

فيليب : سأصدر أوامري إلى جندي بأن يتهيأوا للرحيل غداً ..

ريتشارد : هكذا .. بهذه السرعة ؟

فيليب : (بغيظ) لك الخيار في أن تلحق بي بعد سنة أو سنتين !

ريتشارد : (يضحك) لا تحاول أن تتفعل يا صاحب الجلالة .. إن هذا ليس في صالحك .. خذها نصيحة مني ..

(يدخل أحد الحرس ويهمس في أذن ريتشارد ثم ينسحب)

ريتشارد : (يتجهم قليلاً ثم ما يلبث أن يستعيد ملامحه الساخرة) ألم أقل لك ؟ ولكن يبدو أنك لا تريد أن تصدّقني ..

فيليب : (بدهشة) ماذا ؟

ريتشارد : (ضاحكاً) لقد غرق الشيخ ..

فيليب : (يصرخ) من ؟ الإمبراطور ؟

ريتشارد : وهو يجتاز نهراً صغيراً في قليقية ..

فيليب : وجيشه الكبير .. إنهم مائة ألف يا صاحب الجلالة ..

ريتشارد : تفرّقوا في كل وجه .. والآن .. هل توافقني على تمديد بقائنا هنا أسابيع أخرى ؟

- المشهد الثلاثون -

معسكر صلاح الدين عند أطراف عكا .. وتبدو عن بعد مواقع الصليبيين المحيطة بالمدينة ، فضلاً عن سفنهم المنتشرة على طول الساحل .. يقف صلاح الدين يمد نظره باتجاه المواقع الصليبية يحيط به عدد من الأمراء الأيوبيين والقادة والكتاب ..

صلاح الدين : (للعادل) لقد غرق إذن ؟

العادل : هذا ما يؤكده المسافرون.

صلاح الدين : وجيشه ؟

العادل : يقولون أن عقده انفرط بمجرد غياب الإمبراطور وأنهم الآن يهيمون في الآفاق .. بعضهم قفل راجعاً إلى بلده وكثيرون قتلوا..

صلاح الدين : (يشير إلى البحر) ولكن ها هو ذا جاي لوزجنان يغدر بي بعد أن تعهد لي بألا يغدر أبداً ..

العادل : (بحزن) الطبع غلاب أيها السلطان ..

صلاح الدين : لقد أطلقت من أجله عشرة من أعيان أسرى الفرنجة ليكونوا رفقاء له في الطريق .. وفيهم أخوه .. ولكن كما تقول أيها الملك ..

العادل : وها هو ذا يقود الأسطول الذي يضم شراذم الفرنجة ويرمي به عكا ..

صلاح الدين : كانت خطتي أن اسحقه في ممرات الاسكندرونة أو عند النواقير قبل استفحال خطره ، ولكني كنت منشغلاً بمنازلة قلعة الشقيف .. ثم ان أمرائي عارضوني في ذلك وقالوا : بل نطلبهم طلب الغريم ، وأن من الأفضل مهاجمتهم أمام عكا ليقعوا بين جيوشنا وحامية المدينة من أصحابنا (بأسى) كان خطأ مني أن استجيب لوجهة نظرهم .. فها هو ذا وحليفه المركيز كونراد دي مونتفرات يمكنان الفرنجة من تعزيز مواقعهم قبالة عكا وإحكام حصارهم لها ..

العادل : لا تقلق أيها السلطان فعسى أن يجعل الله سبحانه لعكا فرجاً ومخرجاً.

صلاح الدين : أنظر .. ها هم الآن يعسكرون عند تل المصلبين شرقي المدينة لتأمين تدفق الفرنجة القادمين من أوربا .. لقد جاوزوا العشرين ألفاً عدداً عدا أساطيل البيازنة والبنادقة والجنوية .. ومن يدري كم سيصيرون بعد أسبوع أو أسبوعين .. يقال أن ملكي فرنسا وإنكلترا سيلحقان بهم عما قريب ..

العادل : هذا ما يؤكده القادمون من صقلية ..

صلاح الدين : لم يكن هذا ليعني عندي شيئاً على الإطلاق .. لولا أن جندي قد تعبوا أيها الملك .. استنزفوا تماماً .. إنهم الآن يعطون من ضعفهم قوة .. سنتان متواصلتان وهم يقاتلون .. إنه لأمر فوق احتمال البشر .. ولكنهم مع ذلك يعربون عن رغبتهم في مواصلة القتال ..

تقي الدين عمر : قدر علينا أن نواصل الطريق حتى نهايته ..

صلاح الدين : بارك الله فيك يا تقي الدين .. ولكن للصبر حدوداً .. إنني بدأت اقرأ في عيون جندي ، كما لو أني اقرأ في كتاب مفتوح ، هذا الحزن

العميق الذي يضعهم على الحافة الصعبة بين طلب الاذن بالعودة إلى ديارهم وأهليهم وبين مواصلة القتال ، وهم قد غدوا ركاماً .. إنهم لا يقولون هذا بلسانهم ولكني اقرأه في عيونهم ..

الأفضل : ولكن .. يا أبتاه ..

صلاح الدين : (ينظر إليه بحنوّ) لن يكون القياس عليك فإنك لم تذق ما ذاقوه ..

تقي الدين : ستلحق بنا عما قريب قوات أخرى من المسلمين.

صلاح الدين : (يشير إلى البحر) لكن هؤلاء لا يكفون عن التدفق .. يبدو أن أوربا قذفت بكل مقاتليها لكي تثار لحطّين .. إن التكافؤ ينعدم شيئاً فشيئاً يا تقي الدين ..

تقي الدين : هناك أيضاً أيها السلطان مقاومة أصحابنا داخل عكا .. إنهم يصنعون المعجزات ..

صلاح الدين : بهاء الدين قراقوش الذي يدبر أمرهم هناك ، رجل أعرفه جيداً واعتمد عليه .. ومجاهدون من أمثال المشطوب الهكاري يمكن أن يفعلوا الأفاعيل ، لكن السؤال هو كم سيطول هذا إزاء تدفق العدو الذي يبدو ألا نهاية له ؟ أتدري يا تقي الدين .. لقد تساءلت كثيراً فيما بيني وبين نفسي لماذا ينصبّ الجهد على بيئة محدودة من الشام والجزيرة ومصر؟ لماذا يقع عبء مقاومة الغرب كله على عاتق مسلمي هذه الساحة الضيقة بينما هناك على مدى عالم الإسلام عشرات الآلاف من المسلمين يتحرّقون شوقاً للجهاد في سبيل الله ؟ وقلت في نفسي أيضاً ، بعد أن تلقيت أنباء مؤكدة عن قيام أوربا بإرسال حملة جديدة بقيادة أباطرتها وملوكها هذه المرة .. لماذا لا نفعل الشيء نفسه ؟ لماذا لا نمد نطاق الجهاد إلى مدى عالم الإسلام من أجل تحقيق التوازن المطلوب ؟

العادل : هذا صحيح أيها السلطان .. بل إنه الحل الوحيد في حالة كهذه .. ولكن ثمة عوائق شتى تعرقل تنفيذه ..

صلاح الدين : أبداً أيها الملك .. فقبل أن تجيئني هنا على رأس عساكر مصر ، وقبل أن يجيء قائد الأسطول حسام الدين لؤلؤ لكي يشق طريقه إلى عكا ويمدها بالمؤن والرجال .. بعثت بدعوتي إلى حكام المسلمين في المشرق والمغرب أطالبهم المشاركة في الجهاد ..

العادل : وهل استجابوا لك ؟

صلاح الدين : بالتأكيد .. فلقد بدأ بعضهم يفد على رأس قواته للمشاركة في معركة المصير هذه ، كما أنني بعثت سفيراً إلى أمير الموحدين أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن في المغرب لكي يقول له بأن على غرب الإسلام أن يمد المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين .. وأن عليه أن يرسل سفنه ليقطع عن الفرنجة مادتهم من جهة البحر ..

العادل : وماذا كان جوابه ؟

صلاح الدين : قد يحتاج هذا إلى وقت طويل .. ولكنها على أية حال خطوة في مجابهة الهول القادم من هناك (يشير إلى البحر) قد تخطيء وقد تصيب ..

- المشهد الحادي والثلاثون -

نفس المنظر السابق .. بعد عدة أشهر ..

صلاح الدين : (لصارم الدين النجمي أمير عسكر دمشق) لقد وصلتهم إذن ؟

صارم الدين : نعم أيها السلطان .. أربعمائة غرارة من القمح ، وكمية من الجبن والبصل ومئات من الأغنام .. كل ما جاءنا بحراً من بيروت تمكنا من إدخاله إليهم.

صلاح الدين : ولكن قراقوش أكد لي في رسالته يوم أمس أن هذه الإمدادات لا تكفي لسد حاجة أهل المدينة أكثر من بضعة أسابيع .. على أية حال ، أريد أن ترسل عدداً من رجالك لكي يتسللوا إلى المدينة ويعلموا قراقوش بأن محاولات أخرى للإمداد بالمؤن والرجال يجري تدارسها الآن .. لن أتركهم يضيعون .. ان الوعد بحد ذاته قد يمنح الشيء الكثير في ظروف مستحيلة كهذه .. وأنت تعلم يا صارم الدين أن المريض الموشك على الموت قد يسترد عافيته إذا منح الأمل بالبقاء .. وسأحاول – بإذن الله – أن أعطيهم هذا (لابن أخته حسام الدين لاجين) ما الذي فعلته بخصوص الإمداد المصري ؟

حسام الدين : بعد أيام قلائل ستغادر الإسكندرية بإذن الله ثلاث سفن ضخمة مشحونة بالأقوات والآدام والمير وجميع ما يحتاج إليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طوال الشتاء ..

صلاح الدين : المزيد من الكتمان يا حسام الدين لأن تسرب الأنباء قد يقضي على المحاولة.

حسام الدين : أطمئن أيها السلطان ..

صلاح الدين : (لحسام الدين وصارم الدين وبدر الدين الياروقي أمير عسكر حلب) أريدكم أيضاً أن تبذلوا جهداً استثنائياً لتجديد حامية المدينة واستبدالها بقوات جديدة .. لقد تلقيت أنباء عن تزايد شكواهم من طول المقام ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً (بحزن) أعانهم الله ، لقد تحملوا فوق ما يتحمله البشر ..

الياروقي : ثمة أنباء عن حدوث انشقاق في معسكر الفرنجة بين المركيس كونراد والملك السابق جاي لوزجنان بسبب التنافس حول عرش مملكة بيت المقدس ، كل منهما يريده لنفسه ويجمع حوله الرجال والأنصار ..

صلاح الدين : كان عليّ أن أقتل جاي وأخلص البلاد من شره ولكن سبق السيف العذل.

حسام الدين : قلبك الكبير يتسع دائماً لخصومك .. وكانت أمنيتي دائماً أن يضيق بهم فهم قد طبعوا على الغدر فلا يستحقون الحياة ..

الياروقي : عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. فها هو ذا جاي يقض مضجع المركيس فلا يدعه يتفرد بالقيادة والسلطان .. إن أنصاره والمعجبين به كثيرون .. ولابد من شوكة تخز جنبه وإلا مضى خالي البال لتحقيق حلمه باستعادة المملكة وتربعه على عرشها !

صلاح الدين : هذا جيد .. إنه الثغرة التي يمكن أن نخترقها لإنقاذ عكا من مصير لا ينبئ بالخير .. ولكن قد يكون وصول فيليب ملك فرنسا أو ريتشارد ملك إنكلترا ، مخرجاً لهم من ورطتهم هذه ..

صارم الدين النجمي : فيليب سيصل قريباً على ما يبدو .. أما ريتشارد فإنه مشغول بمهاجمة قبرص وقد يؤخره هذا بعض الوقت ..

صلاح الدين : على العكس .. كنت أتمنى أن يصلا سوية ..

حسام الدين : (بدهشة) لماذا ؟

صلاح الدين : سيقودهما التنافس إلى فتح ثغرة في جسد الفرنجة قد تكون أشد خطورة من الصراع بين المركيس وجاي .. ومهما يكن من أمر فإن ما يتحتم علينا عمله والتأكيد عليه هو إدامة مقاومة حاميتنا وجماهير المسلمين هناك بأي ثمن ..

- المشهد الثاني والثلاثون -

المنظر السابق نفسه .. بعد عدة أشهر ..

الراوي : ما لبث ملك الفرنجة فيليب أوغسطس أن وصل سواحل عكا فجمع شمل الفرنجة تحت زعامته ووجه جهودهم جميعاً لحرب المسلمين .. وكان فرح الفرنجة بوصوله عظيماً بسبب مكانته الكبيرة عندهم بحيث إذا حضر حكم على الجميع .. ولم يشأ أن ينتظر ريتشارد ملك إنكلترا وإنما بدأ بمهاجمة عكا فور وصوله .. وتشجع بقية الفرنجة فأخذوا يعملون آلات الحصار في أسوار المدينة ويرمونها بالقذائف ليلاً ونهاراً .. وعملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة فلم يجدوا أمامهم لردمه سوى جثث الأموات وجيف الخنازير والدواب النافقات.

وبعد أسابيع وصل ريتشارد فازداد الفرنجة به قوة ، وساء موقف حامية عكا أمام ضغط تلك الجموع الكثيفة من الفرنجة الذين شدّدوا الهجوم على المدينة .. وظلت الحامية الإسلامية صامدة في وجه ذلك الخطر الداهم ، وأظهرت تحت قيادة قراقوش شجاعة تسترعي الانتباه ، وظل صلاح الدين يرقب الموقف عن كثب ويقوم بهجمات مضادة لإزعاج الفرنجة عن عكا ، كما قام هؤلاء بمهاجمة معسكر صلاح الدين لكنهم لم يحققوا غرضهم بعد أن ثبت لهم المسلمون ثبوتاً عظيماً وصبروا صبر الكرام.

والسفينة الكبيرة التي أمر السلطان بتعبئتها في بيروت وشحنها بالآلات والأسلحة والمؤن والرجال لإمداد حامية عكا عن طريق البحر، ضرب جندها مثلاً مؤثراً على روح الفداء والشجاعة والاستشهاد التي قاوم بها المسلمون خصومهم في البر والبحر .. فلم تكد السفينة تصل مياه عكا حتى حاصرتها سفن الملك ريتشارد وأحاطت بها من كل جانب ، وعندئذ أبى رجال السفينة الاستسلام وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الأعداء حتى أحرقوا إحداها. وعندما يئس المقاتلون من النجاة قال مقدمهم : والله لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم لهم من هذه السفينة شيئاً .. فأغرقوا سفينتهم وغرقوا جميعاً وهم ستمائة وخمسون رجلاً استشهدوا كراماً .. رحمهم الله ..

– المشهد الثالث والثلاثون –

المنظر نفسه بعد أسابيع .. صلاح الدين يحيط به عدد من الأمراء والقادة والكتاب .. وترى خيام المسلمين وجندهم وقد تناقصوا إلى حد كبير ..

صلاح الدين : (لأخيه العادل) لم يبق في القوس منزع أيها الملك ..

العادل : (يشير إلى معسكر المسلمين) ولكنك سمحت لهم بالعودة إلى ديارهم منذ وقت طويل .. ربما كان بقاؤهم ضرورياً لتجاوز هذا المصير ..

صلاح الدين : أبداً .. كان لابد أن أمنحهم فرصة للراحة .. للقاء بأولادهم وأهليهم .. خمس سنوات وهم يقاتلون .. خمس سنوات بأيامها ولياليها وهم يبذلون من أنفسهم ما يفوق طاقة البشر .. لقد تجاوزت بهم حافات الاحتمال .. ولكل شيء حدود .. وعكا لا تعني نهاية العالم .. وعليّ أن أدخّرهم لزمن قد يكون أشد هولاً .. ثم أن بقاءهم في الميدان قد لا يعني شيئاً ..

العادل : (بدهشة) كيف ؟

صلاح الدين : (وهو يشير إلى معسكر الفرنجة) المعادلة لم تعد في صالحنا على الإطلاق ، بل هي الآن مستحيلة .. ومحاولة اختراقها نوع من الجنون.. فهم يتدفقون من ديار الغرب بكامل حيويتهم .. ارتاح الملكان في صقلية وقضيا وجندهما هناك شتاء طيباً .. وها هم الآن يضغطون بكل طاقتهم على حامية قد استنزفها الجوع والمرض والجهد والسهر والخوف والإعياء .. إنهم يقاتلون أشباحاً أيها الملك .. وأخشى أن نساعد الفرنجة على ذبحهم إذا بقينا مصرّين على موقفنا.. من جهتي جربت أن أمارس ضغطاً من خارج دائرة الحصار ضد العدو .. لكن هذا لم يكد يفعل شيئاً .. إن جندي هم الظهير الموعود لمعارك المصير القادمة ولن أسمح لنفسي أن أضيّعهم في المتاهات..

صارم الدين النجمي : ولكن أيها السلطان .. وأسمح لي إذا قلت لك بأنك ضربت مثلاً قد يناقض ما فعلته مع عساكرك ..

صلاح الدين : هذه مسألة أخرى ..

صارم الدين : إنها في السياق نفسه.

صلاح الدين : (بحزن) حالتي تختلف تماماً .. فليس بمقدوري أن أترك الميدان لكي ارتاح قليلاً (يشير إلى عكا) إنهم هناك ينتظرون ، ولو اقتضى الأمر عشر سنوات أخرى من البقاء هنا لبقيت دون أي تردد .. لا يهمني أبداً يا صارم الدين أن يكون الميدان دار إقامتي حتى لحظات الفراق.. بل ربما تكون هذه هي أمنيتي .. ليس القتال ، ومجابهة الهول ، وانتظار المجهول .. هو الذي يتعبني .. ولكنه الحزن .. الانكسار من الداخل وأنا أرى عدويّ الذي كاد يستسلم قبل سنتين ، يستعيد قدرته وينهض كرة أخرى لكي يديم استعباده للبلاد والعباد .. عندما يتسرب الحزن في عروقك يكون فعله مريراً حتى أن لحظة واحدة منه تعدل سهر الأسابيع الطوال في الميدان .. وها أنا ذا قبالة محنة أهلي وجندي في عكا أتلقى رشقات من الحزن ما تلقيتها في حياتي ..

حسام الدين لاجين : لقد فعلت أيها السلطان ما في وسعك ، فليس ثمة مبرر لأن يكتسحك الحزن ..

صلاح الدين : (وهو يربت على كتفه) الهّم كبير يا حسام الدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بدر الدين الياروقي : وماذا عن الرجال الذين أرسلتهم لمحادثة الفرنجة حول تسليم عكا ؟

صلاح الدين : أبرموا معهم اتفاقاً يقضي بالسماح لحامية عكا بالخروج سالمين مقابل فدية قدرها مائتي ألف دينار ، وأن نطلق سراح ألفين وخمسمائة من أسراهم ، فضلاً عن رد صليب الصلبوت !

العادل : (بحزن) عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ..

– المشهد الرابع والثلاثون –

يعتمد المنظر ، كما هو دائماً بالنسبة للمشاهد الخاصة بالراوي ، على التغطية السينمائية لمفردات الحدث واستخدام المجاميع الكورالية الكبيرة ..

الراوي : دخل الفرنجة عكا في صيف سنة سبع وثمانين وخمسمائة للهجرة بعد أن حصروها قرابة عامين ، وانفجر الحزن والأسى في قلوب المسلمين وعظمت المصيبة عليهم وانحصر كلام العقلاء من الناس في (إنا لله وإنا إليه راجعون) وغشيتهم بهتة عظيمة وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب .. وزادهم حزناً أن ريتشارد لم يكد يدخل عكا حتى نسي شروط الأمان الذي منحه لحاميتها ، ومبادئ الاتفاقية التي عقدها مع صلاح الدين ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين وكانوا زهاء ثلاثة آلاف وساقهم إلى تل قريب حيث قتلوا صبراً ، طعناً وضرباً بالسيف ، وإخوانهم المسلمون عن بعد يشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون !

صلاح الدين : (لبهاء الدين بن شداد الذي يسير بمحاذاته على فرسه وهما يتقدمان معسكر المسلمين خلال الانسحاب من المعسكرات المحيطة بعكا) ما الذي ستقول عن هذا يا بهاء الدين ؟

ابن شداد : هنالك حالات أيها السلطان تعجز الكلمة عن ملاحقتها أو تغطيتها ..

صلاح الدين : ولكنك ستكتبها بالتأكيد.

ابن شداد : هذه مسألة أخرى .. ومع ذلك فان الكتابة التي لا تشتعل بالعذاب نفسه .. والتي لا تتسرب في شرايين الحزن مع دفق الدم ، لا تكاد تقول شيئاً ..

صلاح الدين : كأني بك تحدث نفسك قائلاً لو بقيت في الموصل ولم التحق بالسلطان لكان خيراً لي .. ما لك أيها الكاتب وهذا الحزن ؟

ابن شداد : لو خيرت أيها السلطان لاخترت هذه ..

صلاح الدين : بارك الله فيك ..

ابن شداد : مهما يكن من أمر فما هي إلا حلقة في سلسلة طويلة من الهزائم والانتصارات وتلك هي سنة الله في خلقه .. ولقد فعلت ما في وسعك.. لم تقصر ولم تأل جهداً .. وهذا يكفي ..

صلاح الدين : (محاولاً أن يوقف دمعتين عن الإفلات من عينيه) لقد تحمّلت كثيراً يا بهاء الدين .. اختزنت في قلبي حزن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .. حتى ضياع عكا ، كان بمقدوري أن احتمل مرارته التي لا تطاق .. لكن هذه يا بهاء الدين .. هذه .. أن ترى أصحابك وجندك الذين ضحيّت بالبلد من أجلهم ، يقتلون صبراً .. قبالتك تماماً.. دون أن تقدر على تخليصهم .. أمر يفوق حدود الاحتمال ..

ابن شداد : لا حول ولا قوة إلا بالله ..

صلاح الدين : كانوا مجرد أشباح يا بهاء الدين .. لقد انتزع منهم الجهد والسهر والجوع والمرض وانتظار المجهول كل شيء .. وتركهم ركاماً .. وها هو ذا الملك يغدر بهم .. فيقتلهم صبراً ..

ابن شداد : بمقدورك أيها السلطان أن ترد على العدوان بمثله ، إن لديك أضعاف عددهم من أسرى الفرنجة.

صلاح الدين : كلا يا بهاء الدين .. لن أفعلها ما حييت ، ولن تسوقني مذبحة أصحابي إلى الحافات التي جاهدت من أجل تجاوزها .. فليس ثمة بعدها أيما قيمة إنسانية على الإطلاق ، فكيف بقيمنا الإسلامية يا ابن شداد ؟!

– المشهد الخامس والثلاثون –

القدس حيث يرى صلاح الدين وأمراؤه وجنده وحشود القضاة والعلماء والفقهاء وجماهير الناس منهمكين في الحفر والبناء وتعزيز تحصينات السور والخندق والأبواب ..

صلاح الدين : (وهو يتناول من أحد جنوده قطعة من الحجارة ويضعها في مكانها من السور ثم يبني عليها) (لأخيه العادل) إذا استطعنا أن نحمي هذه من العدوان فسيكون لنا معهم شأن آخر ..

العادل : (يتسلم هو الآخر قطعة كبيرة من الحجارة ويضعها في مكانها من السور) لن يجدها ريتشارد صيداً سهلاً بإذن الله ..

صلاح الدين : (وهو ينظر بمحبة إلى أبنائه وأمرائه وجنده وجماهير الناس وهم يتسابقون في حمل الأحجار ، وتعميق الخندق ، وتعزيز السور والأبراج) أنظر .. إنه الشيء الذي يمنحنا الكثير من العزاء .. روح العمل والفداء هذه التي تتجلّى قبالتك الآن .. لقد أوغل عشقها في نفوسهم وها هم الآن على استعداد لأن يمزجوا الليل بالنهار ..

العادل : الحمد لله .. فها هي ذي الأسوار تعلو كرة أخرى ، والأبراج تزداد حصانة ومنعة .. أما الخندق فإنه سيصبح بعد أيام قلائل حاجزاً قديراً على صد أية محاولة للاختراق ..

صلاح الدين : إنهم يذكرونني أيها الملك بما فعله أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الأحزاب ..

العادل : اسمح لي أيها السلطان إذا قلت بأن الرعية لا تتلقى الإشارة من أوامر قائدها وإنما من سلوكه .. إنه إذا أردت الحق يملك وحده القدرة على الإقناع .. على جعل الجندي والرجل العادي يمارس مهمته بأعلى درجات الإحسان والعطاء .. وهذا يختلف كثيراً عن مجرد تنفيذ الأوامر .. يوم الأحزاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفر ، وينقل التراب ، وينفذّ دوره في الحراسة عبر ليالي البرد والخوف والظلمة والجوع ..

بهاء الدين ابن شداد: (يقترب وهو يحمل مكتلاً من الرمل والحجارة) أعان الله السلطان !

صلاح الدين : (بدهشة) ليست هذه مهمتك يا رجل .. يدك اعتادت منذ زمن بعيد حمل الريشة والقرطاس ، لا التعامل مع الرمل والحجارة ..

ابن شداد : اللحظة أيها السلطان .. الحجارة هي التي تكتب وتقول ..

صلاح الدين : (يشرد قليلاً) كنت الحظك وان تكتب بحزن عن المدن والحصون التي أمرتُ بتخريبها ..

ابن شداد : صدقت أيها السلطان .. فليس يسيراً أن يرى أحدنا موقعاً ما أو مدينة عامرة في ديار الإسلام ، تسوّى بالتراب ..

صلاح الدين : (بحزن) ولكن لابد مما ليس منه بد يا ابن شداد ..

ابن شداد : أعرف أيها السلطان .. أعرف .. أن للضرورات أحكامها ..

العادل : (لصلاح الدين) لو لم تلجأ إلى هذا الأسلوب لمنحت ريتشارد اللعين طريقاً معبّداً إلى القدس .. ها هو الآن يجتاز أرضاً قفراً .. أرضاً محروقة تماماً .. لا ماء فيها ولا زاد .. ولا أحداً مما يمكن أن يمدّ إليه يداً ..

صلاح الدين : لم يكن هيناً علي أيها الملك .. هذه المدن التي كافحت وجندي طويلاً من أجل استردادها ثم إذا بي أضطر لتخريبها .. إنه حزن مضاعف ومرارة صعبة المذاق .. أرأيت إنساناً يمسك سكيناً يذبح بها أبناءه الواحد بعد الآخر ؟ نفس الإحساس كان يتملكني ، وكنت أجاهد لكي أدفنه في طبقة بعيدة من وجداني .. قائلاً مع نفسي : فيما بعد .. فيما بعد ، يمكن أن أبحث عن أبنائي الضائعين .. أن استردّهم .. ولكن ليس الآن .. ما كنت أريدكم أن تلمسوا العذاب الذي كان يأكلني من الداخل .. يأكلني بصمت .. ولكن لا بأس ..

ابن شداد : (وهو ينظر إلى تحصينات القدس باعتزاز) هذه الجوهرة النفيسة أيها السلطان تستحق هذا كله .. وكل خسارة بعدها تهون إذا كانت تعد بشيء ما .. لو كان للمدن التي خربت لسان لأفصحت عن استعدادها للتضحية في سبيل أم المدائن وزهرتها هذه !

صلاح الدين : تعجبني تشبيهاتك .. إنها قد تخفف شيئاً من العذاب .. ولكن المرارة موغلة في الشرايين يا ابن شداد ..

العادل : يكفي أن يرتد ريتشارد وعسكره عن القدس بعد إذ رأى استحالة اقتحامها لكي نتلقى العزاء الحقيقي .. العزاء الذي يغسل كل الآلام ..

صلاح الدين : الحمد لله .. ولكنه يتهيأ لمحاولة أخرى ..

العادل : ليكن .. وسوف يجد نفسه مرغماً على التراجع كما فعل في الأولى ..

ابن شداد : إنهم ينظرون دائماً من زاوية رؤيتهم المحدودة .. مصلحتهم تجعلهم يغمضون أعينهم عن الجوانب الأخرى للحقيقة ..

العادل : أفصح يا رجل ..

ابن شداد : أعطاني السلطان رسالة من ريتشارد يقول فيها : (القدس متعبّدنا فأنزل عنه!) أتدري أيها الملك بم أجابه السلطان ؟ لقد أملى بنفسه عليّ صيغة الجواب .. قال لي اكتب يا بهاء الدين : (القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومحشر امتنا، فلا تتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين) ..

العادل : هذا حق يا بهاء الدين ..

ابن شداد : القدس لنا كما هو لكم .. أنظر أيها الملك إلى الفارق الكبير بين رؤية الرجلين لقضية واحدة!

– المشهد السادس والثلاثون –

معسكر الملك ريتشارد في الرملة .. يرى ريتشارد يحيط به كبار أمرائه وقادته ..

هنري دي شامبني : (لريتشارد) لقد جئنا من بلادنا بسبب بيت المقدس ولا نرجع دونه!

ريتشارد : ألا يكفي يا هنري أن أمنحك عرش المملكة الصليبية بعد مقتل غريمك كونراد دي مونتفرات وإسكات جاي لوزجنان بعرش قبرص!؟

دي شامبني : ولكن المملكة بدون بيت المقدس لا تعني شيئاً على الإطلاق .. وأنت تعرف ذلك يا صاحب الجلالة ..

ريتشارد : لقد رأيت بأم عينيك كيف أننا أرغمنا على الانسحاب في المرة الأولى .. وها هو ذا الهجوم الثاني يؤول إلى المصير نفسه ..

دي شامبني : (بغيظ) لماذا ؟

ريتشارد : (يقهقه) وتسألني لماذا ؟ ألم تر بأم عينيك ؟ أم أنك لا تملك القدرة على رؤية الأمور بشكل جيد ؟ ألم تعاين تحصينات الأسوار ، وعمق الخندق وشدة الحراسة يوم عسكرنا في قلونية على بعد فراسخ فحسب من بيت المقدس ؟ وفضلاً عن هذا ، فإن قيام صلاح الدين بإفساد المياه ظاهر القدس ، وتخريب الصهاريج والجياب بحيث لم يبق حول القدس قطرة واحدة صالحة للشرب .. وقيام فرسان المسلمين بغارات مفاجئة على معسكرنا ، واستيلائهم على قافلة المؤن والإمدادات القادمة من يافا .. وتناقص المؤن وشدة الحرارة .. هذا كله أيها الملك المنتظر جعل من المستحيل عليّ مواصلة الهجوم ..

دي شامبني : أعرف هذا جيداً .. ولكن جهودنا كلها بدون بيت المقدس لا تعني شيئاً لأننا ، وأقولها مرة ثانية وثالثة وعاشرة ، ما جئنا إلا من أجلها!

ريتشارد : لا تحاول أن تلقي رداء مزوقاً على الحقائق .. وقلها بصراحة .. إن عرشك أنت بالذات لن يكون ذا بريق إن لم تنصبه هناك قريباً من كنيسة القيامة لكي تخدع به رعاياك المساكين !!

دي شامبني : (محاولاً مداراة غيظه) لا زلنا أيها الملك على بعد خطوات ، ولا تزال المبادرة بأيدينا .. بينما صلاح الدين يجد نفسه وعساكره محصورين داخل الأسوار .. ماذا لو قمنا بمحاولة ثالثة ؟ بعد أن أصابهم الذعر والإعياء .. وأعدك أيها الملك أنني سأبذل جهدي في استخدام إمدادات أخرى لتغطية الحاجة .. سأجعلها تفيض بين يديك !

ريتشارد : (بخبث) وكيف تضمن ألا يغير عليها المسلمون كما فعلوا مع سابقاتها ؟ هذا كلام يقال يا هنري .. والواقع شيء آخر ..

دي شامبني : ولكن أصحابنا استطاعوا بالمقابل ، وقبل أيام قلائل ، الاستيلاء على قافلة الإمداد المصرية الكبيرة التي يقودها فلك الدين بن العادل ، وتدمير القوة التي بعث بها صلاح الدين لحماية القافلة .. لقد أسقط في أيدي المسلمين أيها الملك ، وهم الآن يعانون من انهيار في روحهم المعنوية .. إنها الثغرة التي يمكن أن نتسلل منها فنوجه إليهم الضربة القاتلة ..

ريتشارد : (بنفاد صبر) لقد أحلت مسألة الهجوم على لجنة من المحكّمين .. وأنت بنفسك وافقت على ذلك .. وكان جوابهم رفض الرأي القائل بضرورة مهاجمة بيت المقدس ..

دي شامبني : إنه قرار موقوت قد لا يكون نهائياً .. ثمة متغيرات ميدانية تجرى لصالحنا .. ويمكن ..

ريتشارد : (يقاطعه مشدّداً على مخارج الأحرف) لن أتحرّك .. شبراً .. واحداً .. فلا .. تتعب نفسك .. بمناقشة .. لا جدوى .. منها .. ولسوف أبعث رسلي بطلب الصلح ..

دي شامبني : (بجزع) ماذا ؟

ريتشارد : (مشيراً إلى البحر) مواطنيّ يخونونني هناك يا هنري ، وأخي جون يغدر بي ويطعنني من الخلف ليقفز على العرش .. وقواي بدأت تخونني هي الأخرى .. لقد تعبت كثيراً بسببكم ، وأريد أن ارتاح .. إنني أحس حتى أعمق طبقة في نفسي انني أضيع .. وما لم أتدارك الأمر وأرجع بسرعة فاقرأ على خالك الملك ريتشارد قلب الأسد .. السلام ..

دي شامبني : ولكن ..

ريتشارد : (مستمراً) ومع ذلك .. مع ذلك كله .. فلن أترك فلسطين قبل أن أسوي الأمور مع صلاح الدين بشكل نهائي .. من هذه الناحية أطمئن.. فلن أدع المسائل والخلافات بيني وبينه معلّقة في الفضاء .. سأحاول أن أحسمها لصالحنا ولصالحك أنت ، وبعدها يمكن أن أرجع إلى بلدي ..

– المشهد السابع والثلاثون –

معسكر الملك ريتشارد في يافا .. يرى الملك على سريره في خيمة كبيرة يحيط به طبيبه الخاص وليم وابن أخته دي شامبني وكبير الحراس ..

ريتشارد : (وهو يتناول حبة من الكمثرى من طبق كبير مملوء بالفاكهة وقطع الثلج ، يأكل منها بشهية وهو ينقل نظره بإعياء بين أصحابه محاولاً أن يرسم ابتسامة خفيفة على وجهه) إنها من صلاح الدين !

دي شامبني : هنيئاً مريئاً أيها الملك ..

ريتشارد : نصحني طبيبي وليم بتناولها بكميات كبيرة .. إن الحمى تستنزفني .. قال لي ان ارتفاع حرارة البدن وفقدان السوائل يقتضي فاكهة وثلجاً .. أليس كذلك يا وليم ؟

وليم : بالتأكيد أيها الملك ..

ريتشارد : ثم إنها تعجبني .. تعجبني كثيراً .. إنها تتميز بطعمها اللذيذ ونكهتها المميزة .. لم أجد في البلاد التي زرتها خوخاً وكمثرى كهذه ..

دي شامبني : (بخبث) ثم إنها من صديقك السلطان !

ريتشارد : تصوروا أيها السادة .. عدوّي السلطان يبعث إلي بالخوخ والكمثرى والثلج .. ويرسل بين الحين والحين من يطمئن على صحتي .. وأخي جون يتآمر عليّ في لندن !

وليم : أكثر من مرة اتصل بي الحاج يوسف ممثل السلطان في مفاوضات الصلح يسألني عن صحة جلالتكم وفيما إذا كنتم تحتاجون شيئاً آخر ..

دي شامبني : تحت خيمة المفاوضات .. كل شيء ممكن !

ريتشارد : أبداً يا هنري .. أبداً.. فإن الإناء كما يقول المثل الإنكليزي لا ينضح إلا بما فيه ..

دي شامبني : (وقد أسقط في يده) هذا صحيح ..

ريتشارد : لقد تعلمت الكثير من هذا الرجل .. إنه معلم كبير إذا أردنا الإنصاف.. أما سماحته فشيء لم نعرفه في ديارنا .. أوربا يا دي شامبني ضيقة شحيحة وقد غرست في نفوسنا الضيق والشح والتعصب .. إنها تجري في عروقنا لحظة أن نشبّ عن الطوق .. لكن الصحراء .. والسماء المفتوحة .. والشمس التي يتدفق دفؤها بسخاء .. تعلّم شيئاً آخر ..

وليم : وديـنهم أيها الملك يعلّمهم الكثير هو الآخر .. لقد حدّثني الحاج يوسف عن وقائع وممارسات لا نكاد في ديارنا ولا حتى في قواميسنا نعرف لها اسماً ..

ريتشارد : قل هذا لهنري الذي أعرب السلطان عن استعداده لأن يكون عنده كأحد أولاده !

دي شامبني : (بخبث) كلام يقال أيها الملك ..

ريتشارد : (وهو يتناول حبة أخرى من الفاكهة) أتدري يا هنري .. لقد بعثت إليه قبل أيام برسالة إعجاب وتقدير أقول له فيها : إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها ، وإني طلبت منك كنيسة القيامة فوافقت ..

دي شامبني : كنيسة القيامة وحدها لا تعني كل شيء ..

ريتشارد : إنك تتعامل مع الأمور مباشرة ولا تدرك دلالاتها أيها الملك المتهالك على العرش .. إنني أتحدث عن المغزى وليس عن ظواهر الأشياء ..

دي شامبني : ربما ..

ريتشارد : بعض الوفاء يا رجل .. ولكن يبدو أننا جميعاً من طينة واحدة .. يكفي أن نتذكر ما فعله غريمك جاي لوزجنان الذي كان ينافسك على عرش المملكة .. لقد هزمه صلاح الدين في معركة حطين ، لكنه عامله معاملة تليق بالملوك وأعطاه كل ما يريد لقاء تعهّد منه بعدم القيام بعمل عدائي ضد المسلمين .. فما الذي فعل ؟ إنه بمجرد ابتعاده قليلاً بدا يحشد الحشود ، ويتآمر ضد صلاح الدين ، وأظنك تعرف بقية التفاصيل ..

دي شامبني : الظروف يا ..

ريتشارد : (مقاطعاً) سأذكرك بمسألة أخرى .. وأظنها تكفي .. لابد أنك سمعت بالأميرة اشيغا زوجة ريموند الثالث صاحب طرابلس ..

دي شامبني : أعرفها جيداً .. لقد أقامت فترة من الوقت في قلعة طبرية قبل استسلام القلعة لصلاح الدين في اليوم التالي لمعركة حطين ..

ريتشارد : بالضبط .. ثم ما لبث صلاح الدين أن عاملها أكرم معاملة رغم أنها زوجة واحد من أشد خصومه ، وسمح لها بمغادرة القلعة بكل ما حملت من أموال وما رافقها من رجال لكي تلحق بزوجها .. أتدري لماذا ؟ لأنه أعطى أمانه لأهل طبرية قبل استسلامهم .. دعك من اشيغا .. فهناك ما هو أكثر إثارة للدهشة بالنسبة لنا معشر الأوربيين.. لقد سمح صلاح الدين للأمير باليان دي ابلين ، وهو من القلائل الذين نجوا من موقعة حطين ، أن يذهب إلى بيت المقدس بشرط عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة ، لأخذ زوجته وأولاده منها.. ولكن باليان ما أن وصل إلى القدس حتى نقض عهده وأخذ يجمع الفرنجة حوله لمقاومة صلاح الدين .. واستولى بمساعدة البطرق على نفائس كنيسة القيامة لضربها نقوداً يتمكن بواسطتها من استئجار الجند ..

دي شامبني : الظروف يا صاحب الجلالة تحتّم علينا أحياناً أن نتجاوز العهود .. فهناك دائماً ما هو أكبر منها وأشد خطورة ..

ريتشارد : أبدا يا هنري .. ليس ثمة شيء أكبر من الكلمة ولا أخطر منها .. لقد قالها المسيح : في البدء كان الكلمة .. وها هو ذا صلاح الدين يعلّمنا هذا .. ولكن يبدو أننا قد أغمضنا أعيننا عن كل شيء يأتي من خارج تقاليدنا وعاداتنا .. أو بعبارة أدق .. مصالحنا ..

وليم : ويكفي أن نتذكر أيها الأمير ما فعلناه نحن عند دخولنا بيت المقدس ، وما فعله صلاح الدين ..

دي شامبني : يبدو أن الحاج يوسف قد مارس تأثيره عليك أيها الطبيب ..

وليم : أبداً .. ولكنه الأمر المشهود ..

دي شامبني : الأفضل يا وليم ألا تخرج عن حدود اختصاصك كطبيب وألا تحشر نفسك في مسائل هي أكبر منك !

ريتشارد : قل يا وليم .. قل .. فلقد سئمت هذه النبرة من ابن أختي ومن كل الأمراء والقادة الذين عايشتهم طويلاً .. هذا الإيقاع الواحد الذي يضع المسلمين دائماً في خانة الخطأ والضلال .. والمسيحيين في دائرة الاستقامة والصواب .. وها أنكم ترون .. أخي يتآمر علي .. ويسرق عرشي لمجرد غيابي في مهمة مقدسة !! وصلاح الدين ، سلطان المسلمين ، يبعث لي فاكهة وثلجاً ويقلق على صحتي .. ماذا تسمي هذا يا هنري ؟

هنري : مهما يكن من ..

ريتشارد : (يقاطعه) لا يهمني جوابك .. أين أونفروي دي تورون ، مندوبي في مفاوضات الرملة ؟

(يغادر كبير الحراس الخيمة وما يلبث دي تورون أن يدخل)

ريتشارد : (بلهفة) ماذا وراءك يا أونفروي ؟

دي تورون : (بارتياح) لقد تم الاتفاق على كل التفاصيل يا صاحب الجلالة ولم يبق سوى التوقيع ..

ريتشارد : (وهو يتنفس بعمق) قل يا أونفروي .. قل ..

دي تورون : ستكون لنا المنطقة الساحلية من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف ، أما عسقلان فتكون للمسلمين ، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بيننا وبينهم. أما الأماكن المقدّسة فستظلّ في أيدي المسلمين على أن تكون لرعايانا حرّية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أية ضريبة ..

ريتشارد : ومدة الصلح ؟

دي تورون : ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ..

ريتشارد : (وهو يحاول أن يعتدل) ستنوب عني يادي شامبني في التوقيع على الاتفاقية ، وسيوقع معك باليان دي ابلين ، وسيكون مندوبي دي تورون بطبيعة الحال من بين الموقّعين !

– المشهد الثامن والثلاثون –

دمشق : مسكن القاضي بهاء الدين بن شداد في محلة الميدان.

الراوي : قضي الأمر وأعلن صلاح الدين أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلاد الفرنجة أن يدخل بلاد المسلمين فليفعل ، ومن شاء من بلاد المسلمين أن يدخل بلادهم فليفعل ..
ودفعني حب الإطلاع إلى أن أسأل القاضي بهاء الدين بن شداد رفيق صلاح الدين وجليسه وكاتب سيرته عن رد فعل السلطان نفسه ازاء الصلح .. فاجتزت جبل المهاجرين في دمشق إلى محلة الميدان حيث يسكن .. وجدته منهمكاً في قراءة بعض القصاصات والتعليق عليها.. ومع ذلك استقبلني بصدر رحب ، الأمر الذي شجعني على الدخول مباشرة في الموضوع وتوجيه سؤالي إليه ..

ابن شداد : (وهو يدفع أوراقه جانباً) والله العظيم ان الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي في محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى به هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في قلعته ..

الراوي : وهل انعكس هذا على تعامله معهم ؟

ابن شداد : أبداً يا أبا الوليد .. لقد ظل الناصر يتحلّى بروح المروءة والتسامح اللتين عرفتا عنه وميزّتا طريقته في التعامل مع خصومه الفرنجة .. تصوّر ان هربرت أسقف سالسبوري طلب منه تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة وذلك إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة ، فلبى طلبه !

الراوي : وماذا عن الحجاج من النصارى ؟

ابن شداد : وصل منهم خلق عظيم العدد إلى القدس ففتح لهم السلطان الأبواب ، ولم يكتف بذلك بل أرسل معهم الخفراء يحفظونهم في الذهاب إلى القدس ، وفي عودتهم إلى يافا. ولما علم ريتشارد كثرة من يزور بيت المقدس من حجاج النصارى خشي أن يغضب صلاح الدين لذلك وسير إليه يسأله منع الزوار ، واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه ..

الراوي : وبم أجاب السلطان ؟

ابن شداد : أرسل إليه يقول بأن أولئك الحجاج وقد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم !

الراوي : يا سبحان الله ..

ابن شداد : أكثر من ذلك يا أبا الوليد .. إنه بالغ في إكرامهم وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم ..

الراوي : (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) ! ولكن قل لي يا بهاء الدين ما الذي كان يدور في ذهن السلطان بعد أن فرغ بعض الوقت من قتال الفرنجة ؟

ابن شداد : لا تثر أحزاني يا أبا الوليد .. أرجوك ..

الراوي : لست بأقل حزناً منك ، ولكنه حبّ الإطلاع ، أو فضوله إذا شئت .. لقد أسرني هذا الرجل فتابعت حياته مذ كان طفلاً ، تماماً كما تفعل أنت ، ولكنك لحسن حظك وحظ المسلمين تكتب ما تراه ، أما أنا فأعتمد على ذاكرتي (يبتسم) وهي لا تزال بحمد الله سليمة !

ابن شداد : **ما كل ما يتمنى المرء يدركه**

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن !

الراوي : زدني إيضاحاً أيها الصديق العزيز ..

ابن شداد : كان السلطان كمن انطلق على حين غفلة من أسر السنوات الطوال في الميدان ، وأنت تعلم أنه منذ رحيله للمرة الأخيرة عن مصر وحتى صلح الرملة لم يكد يحظى بيوم واحد يخلو فيه إلى نفسه ويلبّي أشواقه.. لقد حبسها يا أبا الوليد في مكان عميق في نفسه ومحّض عمره بكل لحظاته ودقائقه وساعاته وأيامه ولياليه للجهاد .. لعلي أحدّثك عن هذا فيما بعد .. والمهم أنه وجد نفسه فجأة خارج مطالب الميدان وضرورات القتال ، فانفجرت أشواقه المحبوسة دفعة واحدة !

الراوي : كيف ؟

ابن شداد : شوقه لمصر التي طال غيابه عنها .. حنينه لدمشق حيث الأهل والولد .. دمشق التي كان يحبّها ويؤثر الإقامة فيها .. رغبته في تفقّد رعيته في طول البلاد وعرضها للاستماع إلى همومهم وشكاواهم ، ورفع الظلم عنهم .. حرصه على معاينة أوضاع المواقع والحصون والقلاع البعيدة لسد خللها وإصلاح أمور أجنادها وشحنها بالرجال .. وقبل هذا كله رغبته في الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. هذه الرغبة التي بلغت حد العشق والتي منعها من التحقّق مرابطته الدائمة قبالة العدو ..

الراوي : وهل أتيح له أن يحقّق هذا كله ؟ أن يلبّي نداء أشواقه المشروعة هذه كما يفعل سائر الناس ؟

ابن شداد : لا والله يا أبا الوليد .. فإنه توفي قبل أن يطفئ شوقه لزيارة الحرمين الشريفين وهو الذي قدر له أن يحرر ثالثهما .. فتأمل هذه المفارقة العجيبة !

الراوي : ليست مفارقة يا ابن شداد ، وأنت أدرى بذلك مني .. ولكنها أقدار الله .. فهناك نمط من المجاهدين يختزل الطريق بينهم وبين الله .. يختزل اختزالاً كأنما قضت مشيئته (جل في علاه) أن يستدعيهم لحظة إنجاز مهماتهم الجهادية ، أو يفك الارتباط بينهم وبين الدنيا وثيابهم لا تزال بعد تحمل غبار المعارك ومذاقها .. ولكن ماذا بصدد زيارته لمصر ؟

ابن شداد : (يشرد قليلاً ثم ما يلبث أن يردّد) :

تمتّع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار !

لم يقدر له يا أبا الوليد أن يرجع إليها كرة أخرى !

الراوي : (يخفض رأسه ويشرد قليلاً هو الآخر) أعرف يا بهاء الدين .. أعرف .. وماذا عن حرمانه من الحج ؟

ابن شداد : تأهب بعد صلح الرملة مباشرة ، وعملت الترتيبات الخاصة برحلته إلى الحجاز بحيث لم يبق إلا المسير .. ولكنك قد تستغرب إذا قلت لك بأن المشكلة الأساسية التي حالت دون تحقيق نيته كانت نقص المال!

الراوي : (دهشا) المال ؟

ابن شداد : هذه مسألة أخرى قد أحدثك عنها فيما بعد .. والمهم أنه لم يجد في خزانته الخاصة ما يمكنه من أداء الفريضة ، وبذلك تقرر تأجيل الحج إلى العام التالي ، فقضى الله ما قضى.

- المشهد التاسع والثلاثون -

المنظر السابق نفسه ، حيث يرى القاضي ابن شداد منهمكاً في تدوين بعض الملاحظات.

الراوي : الخطوات الأخيرة في حياة هذا النمط من الناس تبهر الناس ، وأرجو ألا أزعجك يا بهاء الدين بكثرة أسئلتي .. وإلحاحي ..

ابن شداد : (يحاول أن يبتسم) إنني أعرفكم جيداً أيها المقدسيون .. لا تريدون أن تفوتكم صغيرة ولا كبيرة ..

الراوي : لقد وضعنا الله سبحانه وتعالى قبالة العالم ، مكشوفين تماماً ، فاكتسبنا بتعاقب الأجيال حساً مرهفاً يرى ويسمع ما لا يراه أو يسمعه الآخرون .. إن هذا يعذّبنا يا بهاء الدين ..

ابن شداد : سأعطيك ما تريد على أية حال ، ولكن أعذرني إذا خانتني الذاكرة ، فأنا لست مثلك ، وقد رميت بثقلي على الريشة والقرطاس فضعفت ذاكرتي !

الراوي : (ضاحكاً) سأسطو يوماً على أوراقك فأعرف كل التفاصيل !

ابن شداد : لم أكتب شيئاً بعد عن المحطات الأخيرة من حياة السلطان .. ولعل السبب هو السلطان نفسه عليه رحمة الله ..

الراوي : وكيف ؟

ابن شداد : لقد حملّني بأكثر مما أطيق ، يبدو أن محبّته الزائدة لي وثقته بي لم تكن في صالحي دائماً .. ولا حتى في صالحه !

الراوي : (بدهشة) لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول ..

ابن شداد : لو أنه منحني الفرصة للتفرغ للكتابة لكنت قد أتممت سيرته .. لكنه عهد إلي لحظة مغادرته القدس باستكمال عمارة البيمارستان الذي أنشأه فيها ، وبإدارة المدرسة التي أقامها هناك .. ثم ما لبث أن غادر القدس متوجهّاً إلى نابلس فسبسطية فكوكب فبيروت .. وفي جميع البلاد التي مر بها كان يستمع لشكاوى الناس ويكشف عن أحوالهم ويرفع الظلم عنهم .. وبعد أن تفقّد القلاع الساحلية وأصلح أمرها اتجه إلى دمشق حيث التقى بعدد من أولاده ولحق به هناك أخوه العادل .. ثم ما لبث أن جلس ينظر في شكاوى الناس وينشر جناح عدله على الجميع ..

الراوي : يبدو أن هذا الرجل لا يريد أن يرتاح !

ابن شداد : بل إنه وجد أخيراً فرصته للراحة ، فأخذ يخرج بين الحين والآخر بصحبة إخوته وأولاده لممارسة الصيد والاستمتاع بجمال دمشق ومغانيها الخضراء وكأنه وجد فيها راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار .. ثم ما لبث أن استدعاني لأكون إلى جواره في دمشق .. فلما وصلت دعاني لمقابلته على انفراد ، فدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمّني إليه والدموع تسيل من عينيه .. (يتهدج صوته ثم ما يلبث أن يبكي) ..

الراوي : (وهو يحاول أن يتمالك نفسه من البكاء) يرحمك الله يا صلاح الدين ..

ابن شداد : (وهو يجفف عينه بظاهر كفه) واستمر يستقبل رسل الفرنجة ويمارس نشاطه العادي دون أن يشكو علّة أو مرضاً ، ولكني بدأت ألاحظ عليه ثقل الحركة والكسل ، وانحراف المزاج ، ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ، ومع ذلك خرج لاستقبال الحجاج في يوم عظيم اجتمع فيه جمع كبير من الناس وأحاطوا به حتى خفت عليه وحدّثته في ضرورة الحيطة على نفسه ، ولم أكن أعرف أن هذا هو آخر ركوب له !

الراوي : هذا الفارس الذي ظل ممتطياً جواده منذ شبّ عن الطوق ، وها هو بعد ثلاثين عاماً من الركوب يرغم على الترجلّ ويتهيأ للرحيل .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

ابن شداد : (وهو يغالب انفعاله) عاد إلى البيت ليفتح عينيه وسط الليل وقد غشيته الحمى الصفراء .. استدعينا الأطباء فلم يفلح علاجهم إذ أخذ المرض في تزايد سريع ، وأشتدّ الألم في رأسه ، وقلت رطوبات بدنه.. وما لبث خبر مرضه أن انتشر في دمشق ، فأضطرب الناس وخافوا وغشيهم من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته (يصمت لحظات) هنالك أمور يا أبا الوليد يصعب على المرء أن يعبر عنها ، إنها فوق الاحتمال وبالتالي فهي خارج حدود مملكة الكلمة .. لا تعرفها تماماً إلا أن تراها وتلمسها وتكتوي بجمرها .. أما أن تقرأ عنها .. فلا ..

الراوي : صدقت يا بهاء الدين .. فليس من جرّب كمن لم يجرّب ..

ابن شداد : ما لبثت جموع الناس أن تكاثرت حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان وداع له بالشفاء ، ولم يسمح لأحد بالدخول عليه سواي والقاضي الفاضل ، فكنا نتردد عليه بضع مرات في الليل والنهار .. وفي اليوم السادس لمرضه كنت أجلس عنده ، فأحضروا له ماء فاتراً ليشربه عقب الدواء ، ولكنّه شكا من شدة حرارة الماء. ولما احضروا ماءً ثانياً شكا من برده وقال : سبحان الله ! ألا يمكن لأحد تعديل الماء ؟ وكان ذلك دون أن يغضب أو يصخب .. فخرجت والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : ابصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمين على مفارقتها ، والله لو أن هذا جرى مع بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره !

الراوي : (بتأثر) ما أشبه الليلة بالبارحة يا بهاء الدين !

ابن شداد : (ينظر إليه متسائلاً) ..

الراوي : كأنك بحديثك هذا تضعني قبالة نور الدين الشهيد يوم وفاته ..

بهاء الدين : ذرية بعضها من بعض يا أبا الوليد .. ليست أرحام الأمهات وحدها التي تلد .. ولكنه رحم هذا الدين ..

الراوي : صدقت والله يا ابن شداد ..

ابن شداد : راح المرض يضيق الخناق عليه فأخذ يغيب ذهنه وتنتابه حالات إغماء بين حين وآخر ، وتزداد كمية العرق التي ينضحها جسمه. وفي اليوم العاشر تحسنت حالته بعض الشيء مما أثار فرح الناس وسرورهم .. ولكنها صحوة الموت يا أبا الوليد ، أعقبها تفاقم الحال. وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة ، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ، ساءت حالته بدرجة ملموسة واستمر في حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها إلا نادراً ، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده كتاب الله ، حتى إذا ما وصل المقرئ إلى قوله تعالى : **(لا إله إلا هو عليه توكلت)** تبسم وجه صلاح الدين وتهلّل ، وانتقلت روحه ، عند صلاة الفجر إلى رضوان الله ..

الراوي : يرحمك الله أيها السلطان .. وماذا عن الناس الذين أحبّهم وأحبّوه ؟

ابن شداد : كان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .. والله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا كضرب من التجوّز والترخّص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس .. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم. ودام الحال على ذلك إلى ما بعد صلاة الظهر. وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر ، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر فعزّى الناس فيه وسكّن قلوبهم فما وُجد قلب إلا حزين ، ولا عين إلا باكية ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع !

الراوي : وأين دفن رحمه الله ؟

ابن شداد : في قلعة دمشق ، إلى أن شيّد له ضريح في الكلاسة شمالي جامع دمشق قرب المدرسة العزيزية التي بناها ابنه العزيز عثمان فنقل إليها..

الراوي : (ينهض مودعاً) لي حديث طويل آخر معك يا بهاء الدين فهل أطمح أن ألقاك هناك عند الضريح نفسه لقراءة الفاتحة واستكمال الحديث ؟

ابن شداد : (وهو يعود للانكباب على أوراقه) إن شاء الله ..

- المشهد الأخير -

ملاحظة للمخرج : يعتمد المشهد الأخير على عدد من اللقطات القصيرة نسبياً والتي يتم التحوّل من إحداها إلى الأخرى بدون تمهيد ، بهدف عرض مشاهد حية سريعة عن شخصية صلاح الدين من زوايا مختلفة .. يقطع هذه اللقطات بين حين وآخر ظهور بهاء الدين بن شداد وهو يقلّب صفحات السيرة التي كتبها عن صلاح الدين ، أو وقوفه والراوي عند ضريحه ..

- اللقطة الأولى -

دمشق : صلاح الدين وإلى جواره ابن شداد ..
يقف ابنه الملك الظاهر غازي قبالته بحياء ..

الظاهر : جئت أستأذنك يا أبتاه في الرحيل إلى حلب.

صلاح الدين : (وهو يتفرس في ابنه) أريدك أن تكون عند حسن الظن .. لقد عهدت إليك بأمرة بلد ليس كالبلدان ..

الظاهر : لك علي السمع والطاعة .. وسأبذل ما في وسعي إن شاء الله .. فهل من وصية توصيني بها أيها السلطان ؟

صلاح الدين : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك .. وأحذرك من الدماء والدخول فيها فإن الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم. ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقي على أحد. وحذار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله بتوبتك إليه فإنه كريم .. (لابن شداد) هل من شيء تريد أن تقوله يا بهاء الدين ؟

ابن شداد : (يفاجأ فيكف عن الكتابة) لم تترك زيادة لمستزيد أيها السلطان ..

صلاح الدين : أريد نصيحتك وليس مجاملتك ، فإننا مسؤولون عنهم أمام الله !

ابن شداد : لن أقول إلا حقاً إن شاء الله .. وقد خبرتني طويلاً أيها السلطان (يتقدم الظاهر لمعانقة أبيه ثم يغادر المكان).

– اللقطة الثانية –

على ساحل فلسطين ، جنوبي عكا ، في يوم شاتٍ قبالة البحر الهائج .. صلاح الدين ممتطياً جواده وإلى جواره ابن شداد .. وعلى مبعدة منهما ثلة من الحرّاس ..

ابن شداد : (وهو يفرك يديه طلباً للدفء) إنه يوم شديد البرد !

صلاح الدين : (يفرك يديه هو الآخر) لا تدري يا بهاء الدين كم يعجبني مرأى البحر وهو يهدر ويهيج ..

ابن شداد : (مشيراً إلى الجنوب) لقد سرّحت عسكرك المصري منذ أسابيع خوفاً عليهم من متاعب الشتاء .. وها هم الآن ينعمون بالدفء والأمن هناك في بيوتهم وبين أهليهم .. وأنت أيها السلطان تقف وحيداً أعزلاً مع قلة من أصحابك في مواجهة البرد .. والبحر .. والوحشة ..وعدوّ لا يرحم !

صلاح الدين : اطمئن يا بهاء الدين ..

ابن شداد : كان رأيي وكبار مرافقيك منذ البداية ، ألا تفعل ذلك ، واعتبرنا تسريحك العسكر مخاطرة عظيمة ، فلم تلتفت إلينا .. وها أنت ذا تمضي إلى عكا بحذاء الساحل في قلّة من جندك !

صلاح الدين : (وهو يبتسم) إذا كنت أنت أيضاً تريد أن تلحق بأهلك في الموصل فلك أن تفعل !

بهاء الدين : (بنبرة عتاب) وأدعك ؟ وافترق عنك ؟ حاشا لله !

صلاح الدين : (وهو يتأمل أمواج البحر الهادرة) أريد أن أحكي لك شيئاً في نفسي .. إنه متى يسّر الله فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتبعت الفرنجة فيها ، حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله ، أو أموت !!

– اللقطة الثالثة –

دمشق : عند ضريح صلاح الدين.

الراوي : (لابن شداد) إلى هذا الحد ؟

ابن شداد : أكثر .. يا أبا الوليد .. لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذّكره به ويحث عليه .. وكثيراً ما كان ينظم جيوشه ، ويقاتل وهو يعاني آلام المرض ، وكنت أبدي دهشتي لذلك فيرد عليّ قائلاً : إذا ركبت يا بهاء الدين يزول عني المها !

الراوي : سبحان الله !

ابن شداد : لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة !

الراوي : من أجل ذلك صنّفت له كتابك المعروف عن (الجهاد) ..

ابن شداد : ألحّ علي أن أذكر فيه آدابه ، وكل آية وردت في كتاب الله عنه ، وكل حديث نبويّ روى في فضله .. لقد سهرت الليالي الطوال وأنا أعمل فيه (يشرد قليلاً) فيما بعد ، عرفت أنه ، رحمه الله ، كان كثيراً ما يخلو إلى نفسه ليطالع فيه ، فتملكني الفرح وقلت في نفسي : هذا عزاؤك يا ابن شداد !

الراوي : أظن أن الشيخ قطب الدين النيسابوري صنّف له كتاباً هو الآخر ..

ابن شداد : في أحكام الدين .. وكان السلطان حريصاً على استذكار المعلومات التي تضمنّها الكتاب ، وأخذ يعلّمها الصغار من أبنائه ويحفّظها لهم !

– اللقطة الرابعة –

القـدس : صـلاح الـدين وإلـى جـواره القاضـي الفاضل.

صلاح الدين : وهل قدرت على إحصائها أيها القاضي ؟

القاضي الفاضل : (وهو ينقّر على ورقة في يده) فعلت ما في وسعي .. وما سواها فإنه النسيان الذي رفعت مسؤوليته عن ابن آدم.

صلاح الدين : بارك الله فيك .. وكم بلغ عددها ؟

القاضي الفاضل : بضع سنوات ..

صلاح الدين : لا حول ولا قوة إلا بالله ..

القاضي الفاضل : إنها الأمراض والنوازل التي حلّت بك .. أيها السلطان .. والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ..

صلاح الدين : ولكنه الصيام المكتوب.

القاضي الفاضل : ما دمت قد عزمت على الوفاء فسيكتب لك أجرها ، واسأل الله تعالى أن يعينك على اتمامها ..

(يغيب صلاح الدين والقاضي الفاضل)

الراوي : (لابن شداد) وهل بدأ رحلته مع الوفاء ؟

ابن شداد : واظب على الصيام مدة متصلة ، وحدث وأن تغيّب القاضي لبعض شؤونه فتوليت متابعة الأيام التي يصومها السلطان .. لكن المرض ما لبث أن أخذ يحاصره ..

الراوي : وهل أخذ بالرخصة كرّة أخرى ؟

ابن شداد : طبيبه لم يوافق على صومه أثناء مرضه الأخير ، ولامَهُ على ذلك ، ولكنه أصرّ على الصيام حتى قضى ما كان عليه قبل أن يشتد عليه المرض ويموت ..

الراوي : يرحمه الله ..

ابن شداد : (مسترسلاً) وكان يحب سماع القرآن ويصغي له بكل جوارحه ، فإذا سمعه يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته .. أتدري يا أبا الوليد؟ لقد بلغ من حبه لسماع القرآن أنه كان يأمر من يحرسه في الليل بقراءة الجزأين والثلاثة والأربعة وهو جالس يسمع .. الحزن نفسه يوغل في وجدانه وهو يخلو إلى كتب الحديث لكي يقرأها .. وكان إذا مر بحدث فيه عبرة دقّ قلبه ودمعت عينه ..

الراوي : لقد وجد نفسه وجهاً لوجه قبالة التاريخ .. وهو يخفق ويتشكّل ، فتعلم كيف يتلقى نداءاته المترعة بالتعاليم .. إنه مع كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، كان ينصت للخفقان الذي يومض بالإشارات المؤثرة .. بالحزن الكوني الكبير .. فكان يحاورها بدقات القلب ودمع العين .. هذا النمط من الناس يا بهاء الدين لا يحتمل ثقل التجربة طويلاً فيشيخ قبل الأوان ويرحل عن الدنيا سريعاً ..

ابن شداد : كنت أمنّي نفسي بأن أقضي معه سنوات أخرى لكي أوغل أكثر في طبقات وجدانه البعيدة .. ولكن ..

الراوي : تلك مشيئة الله ..

– اللقطة الخامسة –

دمشق : صلاح الدين يجتاز الدروب على جواده في يوم مطير .. يتجمهر حوله الناس يعرضون مظالمهم وشكاواهم ويتزاحمون للوصول إليه .. ينصت لكل واحد منهم بأناة ويحاول أن يعينه على إزالة أسباب شكواه ..

أحد الدمشقيين : لقد طفح الكيل يا صلاح الدين وأريدك أن تنصت إليّ ..

صلاح الدين : (ببشاشة) تقدم قليلاً يا رجل لكي أسمع صوتك.

الدمشقي : (مشيراً إلى الناس) ولكن هؤلاء الدهماء يسدون عليّ الطريق.

صلاح الدين : ليسوا دهماء ولكنهم بشر مثلك جاءوا يعرضون علي ظلاماتهم.

الدمشقي : (بحدّة) ولكنك أعطيت الفرصة لبعضهم وحجبتها عن الآخرين.

الملك الظاهر : (صائحاً) لقد تجاوزت حدك يا رجل .. إنك تتكلم مع السلطان.

الدمشقي : لا حاجة بي لأن تعلمني ذلك .. أعرف جيداً إنه السلطان ولهذا جئت اعرض حاجتي عليه (يرفع صوته) ولكن يبدو أنه لا يريد أن يسمعني..

صلاح الدين : هوّن عليك يا رجل فلسوف أعطيك الفرصة واسمع ظلامتك (لابنه الظاهر) أكتب له رقعة لكي يقابلني غداً في القلعة قبل صلاة الظهر إن شاء الله ..

(يغيب صلاح الدين ومن حوله)

ابن شداد : (للراوي) كنت على بغلتي حينذاك أشق طريقي بصعوبة إلى مكان السلطان ، وما أن اقتربت منه حتى نضحت البغلة على ملابسه رشاشاً من الوحل والطين فأتلفتها ..

الراوي : (وهو يغالب ضحكه) حتى أنت يا بروتس ؟

ابن شداد : (دهشاً) ماذا ؟

الراوي : لا شيء يا بهاء الدين .. ولكن ماذا فعلت ؟

ابن شداد : حاولت أن أتراجع قليلاً وأنزوي خجلاً ، ولكن صلاح الدين ابتسم وأشار إليّ أن أقترب منه أكثر ، وراح يزيل ما في نفسي من خجل وألم ..

الراوي : (كمن يحاول أن يتذكر) أذكر مرة أنك حدثتني عن موقف شبيه بهذا..

ابن شداد : موقف ؟ قل عشرات المواقف ولا تخش شيئاً .. إن سماحته فاقت كل تصوّر .. لقد كان يغزو القلوب بها كما كان يغزو بالبطش والشجاعة في ميادين القتال ..

الراوي : والله إنها لمعادلة صعبة ، ولكن هذا النمط من الناس قدير على تنفيذها.

ابن شداد : دعك من معادلاتك الصعبة واستمع لهذه ..

يظهر صلاح الدين في ميدان القتال وحوله حشد من الأمراء والقادة ..

أحد القادة : ولكنك مخطئ أيها السلطان.

قائد آخر : بالتأكيد ، فإن الخطة لا تنطوي على الحد الأدنى من الضمانات.

قائد ثالث : في حالة كهذه ، فإنني أجد نفسي في حل من تنفيذ أوامرك أيها السلطان.

(يغيب صلاح الدين والمحيطون به)

الراوي: وكيف كان ردّه ؟

ابن شداد : تركهم وانصرف كالمغضب ، حتى خيّل لمن رآه أنه ربما قتل جماعة من العساكر في ذلك اليوم .. ولم يزل سائراً والأمراء من حوله يرعدون خيفة وكلّ منهم يعتقد أنه مسخوط عليه ..

الراوي : وأنت ؟

ابن شداد : لم تحدثني نفسي بالدخول عليه بعد عودته إلى القدس ، إذ تملكني الخوف أنا الآخر .. ولكنه ما لبث أن استدعاني.

صلاح الدين : (لابن شداد) اجمع الأمراء يا بهاء الدين وجئني بهم إلى هنا ..

ابن شداد : (بوجل) ولكن ..

صلاح الدين : (مقاطعاً) لا تقلق يا رجل .. إنني أعرف جيداً رقة قلبك .. انظر ..

(يغيب صلاح الدين ويظهر الراوي)

ابن شداد : (للراوي) نظرت إلى المائدة التي أشار إليها فرأيت أطباقاً من الفاكهة.

الراوي : فاكهة ؟

ابن شداد : لم أكن قد لحظتها عند دخولي ، لما كان يتلبسني من الهم !

الراوي : أصارحك القول يا بهاء الدين .. إنني لا أكاد أفهم شيئاً من هذا كله !

ابن شداد : (مسترسلاً) حضر الأمراء والقادة وهم خائفون ..

(يظهر صلاح الدين وقبالته عدد من الأمراء والقادة)

صلاح الدين : لا داعي للخوف أيها الأمراء ..

أحدهم : ولكن ..

صلاح الدين : لا .. أبداً .. إنما هي فاكهة طيبة وصلتني من دمشق فأحببت أن تشاركوني في أكلها.

(يغيب صلاح الدين وأمراؤه)

ابن شداد : (مسترسلاً) وجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ..

الراوي : والنتيجة ؟

ابن شداد : انصرفوا على عزم الرحيل للقتال كأن لم يجر شيء أصلاً !!

– اللقطة السادسة –

الراوي : (لابن شداد) زدني يا بهاء الدين فإن حديثك لا يملّ.

ابن شداد : لقد أتعبتني يا رجل .. ثم أن مصنفي سيكتمل عّما قريب بإذن الله ، ولك أن تقرأه من الجلد إلى الجلد لإشباع نهمك للتفاصيل ..

الراوي : القراءة مسألة أخرى .. وسماعك مباشرة له مذاق خاص .. إنك تتحدث بروحك يا بهاء الدين فكأنك تعيش الحدث وهو يتشكّل اللحظة .. وهذا يعدل عندي مطالعة عشرات المصنفات والأسفار .. ولكن قل لي ماذا تنوي أن تسميه ؟

ابن شداد : (بعد لحظة تفكير) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ..

الراوي : والله إنها النوادر والمحاسن التي تثير الدهشة والانبهار .. عجيب أمر هذا الرجل ..

ابن شداد : ليس ثمة عجب إذا أردت الحق .. أليس هو ابن مدرسة الرسول المعلّم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ؟

الراوي : صدقت والله يا ابن شداد ..

ابن شداد : في يوم ما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يعاني آلام المرض قبيل وفاته ، قد كشف ظهره للناس في المسجد وراح يطوف بهم وهو يقول : ألا من كنت قد جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدْ منه !

الراوي : (بتأثّر) (عليك افضل الصلاة والسلام) يا رسول الله !

ابن شداد : اسمع يا أبا الوليد لكي لا تطالبني بالمزيد .. لقد حدث وأن أدّعى تاجر يدعى عمر الخلاطي.

(يظهر صلاح الدين وعمر الخلاطي وهما يقفان معاً قبالة القاضي بهاء الدين بن شداد)

ابن شداد : (لعمر) قل يا رجل ولا تخشَ شيئاً ..

عمر الخلاطي : (وهو ينظر إلى صلاح الدين من طرف خفي) ولكنه الـ ..

ابن شداد : قبالتي .. يصير الجميع سواء .. وها أنت ذا تراه يقف إلى جوارك ، وإلا فإن بمقدوره ألا يحضر ابتداءً .. قل ولا تخشَ شيئاً ..

الخلاطي : (بتلعثم) لقد .. أخذ .. مني .. سنقر ..

ابن شداد : ومن سنقر هذا ؟

الخلاطي : أحد مماليكي .. ثم ما لبث أن استولى على ما كان لهذا السلوك من ثروة طائلة وهي لي أيها القاضي ..

ابن شداد : اطمئن .. فسوف استدعي شهود الطرفين لكي أتحرّى صدق الأدلة ..

(يظهر الراوي فجأة)

ابن شداد : (كمن يفاجأ) ما الذي جاء بك يا أبا الوليد ؟ ألا تراني منشغلاً باستدعاء الشهود ؟

الراوي : (يبتسم) انني الشاهد الأول .. والأخير .. يا بهاء الدين .. أتراك نسيت؟

(يدعك ابن شداد جبهته ثم ما يلبث أن يغيب ويغيب قبالته صلاح الدين والخلاطي .. والآخرون) ..

الراوي : أحضر كل من الطرفين شهوده وما لديهم من أدلة يثبتون بها رأيهم ، حتى اتضح في النهاية كذب الخلاطي وبطلان ادعائه .. وعندئذ رفض السلطان أن يترك المدّعي يخرج خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ كبير من المال !

– اللقطة الأخيرة –

دمشق : الراوي وابن شداد عند ضريح صلاح الدين.

الراوي : لا أريد أن أشق عليك يا بهاء الدين ، فقد سخوت علي بالحديث ، ولكني أحب أن أسألك قبل أن نغادر المكان ، وأنت قد عشت قريباً منه، لحظة بلحظة ويوماً بيوم ..

ابن شداد : (بحزن) كنت أرجو أن نرحل سوياً ، كما عشنا سوياً ..

الراوي : إنها حكمة الله سبحانه وتعالى .. أن يمدّ في عمرك لكي تكتمل على يديك صورة الرجل الذي حمل في قلبه هموم أمة بكاملها ..

ابن شداد : الهم كبير والله يا أبا الوليد .. ترى هل سيقيض لهذه الأمة من ينوء بعبئه ويواصل الطريق ؟

الراوي : إنها معدن الرجال ولن تعدم أبداً من يحمل أمانة الهمّ الكبير ..

ابن شداد : (وهو يهم بمغادرة المكان) إن شاء الله ..

الراوي : (يمسك به من كتفه) ليس قبل أن تجيبني على سؤالي الأخير ..

ابن شداد : قل يا أبا الوليد .. قل ..

الراوي : في حياة هذا الرجل حشد من المواقف واللحظات ، مما تسميه أنت النوادر والمحاسن .. أثرت فيك .. انسربت في طيات عقلك وروحك لكي تعرّش هناك إلى الأبد .. لقد حدّثتني عن بعضها فنقلت شحنتها إلي وإلى كل الأجيال التي ستجيء .. فتنظر وترى .. ولكني ، وأعذرني إذا رجوتك أن تبحث في ذاكرتك عن اللحظة الأشد تأثيراً .. إنه حب الإطلاع يا بهاء الدين .. ليس إلا ..

ابن شداد : (يشرد قليلاً) يصعب على المرء أن يختار يا أبا الوليد .. وأنت قد رأيت بنفسك (يرتجف صوته قليلاً) ولكني ما أزال أذكر إحداها . لقد حفرت في نفسي أخدوداً لن يردمه إلا الموت .. أتدري لماذا ؟

الراوي : إنني أسألك عن هذا !

ابن شداد : (وهو يطوّح بيده) هنالك مواقف قد تبدو اعتيادية ، وربما صغيرة ، إذا ما قارنتها بالأحداث الكبيرة التي تشد الأنظار .. ولكنها مؤلمة يا أبا الوليد ..

الراوي : ربما لكونها صغيرة لا تكاد ترى ..

ابن شداد : كنت إلى جواره يوم جاءه أحد أصحابه لكي ينحني قريباً منه ويهمس في أذنه .. الكلمات التي لا تكاد تسمع التقطتها أذناي .. لقد جاء لكي يقول له إن ابنه إسماعيل قد توفي .. استرقت النظر إلى وجه السلطان.. إلى ملامحه وهو يجاهد من أجل ألا يعرّف أحداً بالأمر .. ألا يفضحه الحزن .. كنا في أمر يهم المسلمين كلهم .. وأنا أفهم صلاح الدين جيداً .. إنه يعرف كيف يكبت همومه الخاصة ، ويشكم أشواقه وأحزانه لكي لا يلتفت لنداءاتها ولو للحظات ، ومن أجل أن يظل في دائرة الهم الكبير .. إنه يقدر في الوقت المناسب على أن يفك الارتباط .. يفكه تماماً .. بين ما يعتمل تحت جلده .. وما يجري في العالم ..

الراوي : (بتأثر) ولكن هذه ..

ابن شداد : (وهو يغالب البكاء) هذه .. مسألة تفوق الطاقة .. تتجاوز القدرة على التحمّل .. من أجل ذلك لمحته ، وهو يقاتل بصمت حزنه على ولده ، يمسك دمعة تريد أن تفرّ من عينيه !

الراوي : (يغالب بكاءه هو الآخر) حسبك يا ابن شداد !

ابن شداد : أنظر يا أبا الوليد إلى هذا الصبر والاحتساب .. وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل ؟!

الراوي : (وهو يمسح عينيه بظاهر كفه) يرحمه الله ..

ابن شداد : (يقترب أكثر من الضريح ويرفع يديه إلى السماء) اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب .. ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين ..

الراوي : (يرفع يديه هو الآخر) آمين ..

ابن شداد : اللهم إنك تعلم انه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فأرحمه ..

الراوي : آمين ..

– الختام –